رواية

دايدالوس

الكتاب الأول: تعلم التحليق

عمرو جنيد

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

الطبعة الأولى
الكتاب : دايدالوس
تأليف : عمرو جنيد
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : عبير محمد
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٩٢٦٣ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 07 - 6

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

إهداء

إلى أبي (محمد جنيد) وإلى الكتابة المفككة الفوضوية

التي تشكل صورة أصدق عن الوعي

إلى زوجتي، لولاكِ ما تم هذا العمل

وبعد حين مينوس المشهور بجيشيه القويين ومكره

قد غار من دايدالوس صانع قصر التيه بكونوسوس

فعاقبه بإلقائه فيه ليذوق الضياع

-١-

كان هنـاك هنـدي أحمـر عـلى الرمـال الحمـراء وسـط صبـارات العالـم المنسـية والطـرق الـتي لـم تعبدهـا يـد صانـع سـوى الريـاح وسـطوة الفـلاة، هنـدي أحمـر عـاري الجـزع تتـدلى بلطـة متنمـرة مـن حـزام بـدائي لـف بخشـونة وتـسرع أيـادي المحاربـين فـوق سروال مـن جلـد البقـر.

كان هنـاك هنـدي أحمـر تتلـون أخاديـد وجهـه بأصبـاغ حمـراء وبيضـاء رسـمت بسـميترية مـن الجبهـة حـتى تلتقـي تحـت الذقـن العريـض والشـفاه المتشـققة المزمومـة بعـزم وعطـش.

كان هناك هندي أحمر يقف ليسترق السمع لما تمليه نذر العاصفة الرملية القادمة، تزحف كأسراب نحل من مفرق الأفق الدامي، تسيلمن أطراف السهول كطوفان من الدم يقطر بلزوجة مقززة من على حواف مذبح السماء.

وضع الهندي كفيه مشكلًا بوقًا على فمه ثم أطلق أصواتًا تشبه أصوات جنادب الليل على ضفاف النهر الكبير كي يهبط على الكثب الرملي نسر أصلع بعين واحدة.

يغلق أبي التلفاز ليقطع انسياب الحلم إلى وعيّ وتوحدي مع ذاك الهندي، يأمرني أن آتي إلى طاولة الطعام، أستقيم من جلستي الأرضية ثم أتوجه إلى المغسلة، أغسل يدي من عوالق الرمال الحمراء ثم أنضم إليه على طاولة الطعام، يضع أمامي رغيفًا وصحن فقير تسبح به بقايا أسماك التونة في عصير من ليمون و بهار، أتناول لقيمات شحيحة في سكون وأنا ساهم.

هو لا يتحدث كثيرًا، يشغل وقته بالتدخين والقراءة دائمًا في ملابسه الداخلية عاري الجزع، أراه ضخمًا، أراه هائلا، أسأله بنبرات متلعثمة.

- لم يطلقون عليهم هنودًا حمرًا يا أبي؟

- كي يفرقوا بينهم وبين هنود الهند الأصلية، من اكتشف أمريكا أراد أن يكتشف طريقًا مختصرًا إلى آسيا فأبحر غربًا فوجد نفسه في أرض عذراء أخرى، غير جنة التوابل و الألوان.. فبدل أن يجد مبررًا لفشله في العثور على طرق تجارية للإبحار، روّج أنه كان يقصد العثور على هذا المكان فحمل إلى الأرض البكر البارود والمسيحية الكاثوليكية والأمراض التناسلية، وتكاسل أن يعترف بأنها ليست الهند، أو أن هؤلاء السكان بدائيين ليسوا بهنود فصمم المستعمر الأوروبي أن يدعوهم الهنود وبكل صلف لونهم كتفرقة مستعلية.

قالها بحيادية وبلا أي انفعال، بعد فترة من الزمن كان الحال قد تبدّل وهاجر أبي، عندما التقينا يومها حدثني عن حال أمريكا كأنه «ماركو بولو» الألفية الجديدة، قال كأنه يستكمل حديث طفولتي.

- هناك في لاس فيجاس كنت خرجت توًا من باب الفندق الواقع أمام أضواء كازينوهات القمار المغوية، استوقفني أحد المشردين كان هندي العرق، رث الثياب

يرتدي منها السروال الجينز الممزق وسترة مفتوحة على صدر عاري، تأملت في ملامحه الكالحة بسبب معاقرة الخمر الرخيص وضياع الهوية، طلب مني لفافة تبغ فوهبته العلبة كاملة، بعد أن تركته بخطوات قليلة وجدت إعلان ضخم لشركة سياحية تروج لرحلات زيارة لمستعمرات الهنود أو السكان الأصليين كنوع من موضة الصوابية السياسية المنتشرة في العالم كعقدة الذنب، علمت أنهم بعد حروب الإبادة توصولوا لاتفاق سلمي بارد مع الفيدراليين البيض بأن لهم مستعمراتهم، بل لا يدفعون ضرائب أو ينخرطون في الجيش وتسري عليهم قوانينهم الخاصة بشرطة خاصة من بني جلدتهم، قطيعة حضارية بعد الاستلاب التاريخي الذي كان سببه ساذج ككل أسباب التاريخ، مغامر بحار أفّاق ضل الطريق إلى الهند.

***

أنصت له باهتمام، أشكّل الكلمات صورًا في مخيلتي، يعطيني لفافة تبغ، أشعلها وأتابع التلفاز أتذكر مقدمة مسلسل قديم... كان هناك هندياً أحمر يدعي (جيدايا).

وأتذكـر إلحـاح أمـي عـلى أبي أن يبتـاع لي هديـة لعيـد ميـلادي السـابع، حفـلات أعيـاد الميـلاد سـقطت مـن ذاكـرة بيتنـا منـذ أن ماتـت جـدتي، بعـد موتهـا لـم يـزر الفـرح بيتنـا أبـدًا.

أبي طلـب مـن أمـي أن تتحـلى بالصـبر لضيـق ذات اليـد، وعـدم توفـر عمـل يوفـر لـه فائـض قليـل يتحمـل تكلفـة هديـة، ومـع شـدة إلحاحها لإسـعاد وحيدهـا يقـول بعصبية

- الهدايـا ليسـت لنـا، الهدايـا ألاعيـب البرجوازيـين المصطنعـة، أتريديـن أن ينشـأ ابنـك مائعًـا؟!

يـوم عيـد ميـلادي وجدتـه في غرفتـه يحمـل سروالاً قديمًـا لي وقـام بلصـق شرائـط ملونـة عـلى أطرافـه، ثـم صنـع لي تاجًـا مريشـاً دبّـر لـه الريـش مـن دكان (الفرارجـي) القابـع بالسـوق.

اليـوم كان غريبًـا عـلى أبي وعـلى منزلنـا، أبي لأول مـرة منـذ زمـن ليـس بقليـل يهتـم بـشئ يسـكب نفسـه في شئ يتشـكل لخدمـة شئ كسـائل في قـارورة، دار عـلى محـلات السـوق ليدبـر بوصـة بطـول زراع فلـم يجـد بغيتـه، خـاض الطريـق

عبر شارع السوق حتى خدمه الحظ بعد أن عانى طوال الظهيرة ليعثر على بائع لقصبات الصيد عند ترعة الباشا الألباني، البائع لم يتفهم طلبه بأن يطلب مشتري منه قصبة بطول ذراع، يا ترى في ماذا ستفيده؟

بعدها مر أبي على محل الخردواتي ليبتاع شريطاً من المطاط (الاستيك) العريض كالنوع المستخدم في شد وسط السراويل الداخلية، شاهدته أمامي ينكب على ثني البوصة كي يقوم بربط طرفيها بطرف الأستك المطاطي ليصنع لي قوساً وبقايا أعواد جريد النخل أسهم مريشة.

أبي الذي يلوذ بقوقعة من صمت ويمارس الجلوس البارد الطويل على كرسيه الأثير عاقدًا ساقا فوق ساق ليبدوا كقنطرة يعبر من تحتها الزمن، في دعة فتح لي أول أبواب الحلم السحري كنت فيه هندي أحمر أخوض مغامرات (جيدايا) في جنابات الغرفة الكبيرة بمنزلنا الذي كان يتألف من غرفتين متعددتين الأغراض، الغرفة الكبرى التي كانت غرفة للطعام والمعيشة ومبيت لي صارت لي ملعبًا ومسرحًا وصندوقًا سحرياً.

***

أجلس متوثبًا أمام شاشة التلفاز أنتظر موعد عرض مسلسلي المفضل، المرة هذه بالذات كانت مميزة لأني أرتدي زي الهندي الأحمر، على الشاشة الأبيض والأسود بدأت موسيقى المقدمة، أغني معها الهندي الأحمر المغامر الشجاع، أضم القوس إلى صدري وأهز رأسي فيتمايل التاج المريش، ثم أقوم لأرقص في دوائر حول نار متخيلة ووقع طبول الأغنية كرقصة محاربي الكومانشي في العالم القابع خلف الشاشة، تأتي نهاية المقدمة وعنوان الحلقة مرقم .

(الحلقة الأخيرة: الهندي الطيب الذي مات) أتجهم ساقطًا في حومة اللافهم، لم الأخيرة؟ ومن الهندي الطيب الذي سيموت؟

أشاهد الحلقة متوجسًا فتنتهي مغامرات (جيدايا)، الهندي ينقذ قبيلته كالعادة لكنه يموت فداءً، تختار قبيلته دفنه في الرمل الأحمر مع أسلافه في مشهد تأبيني مليء بالصياح والرقص، ثم كسر رمحه كتقليد ليوضع نصله على طوطم القبيلة تخليدًا وتكريمًا له.

تتهي الحلقة لتترك شرخًا غير مفهوم عن معنى النهايات عندي، آخر الحلقات يموت بها الهندي الطيب حتمية لا مناص عنها، الأخيرة والفناء لايشفع لك أن تكون هندياً طيباً وشجاعاً أو وغداً حتى، لم أفهم معنى الأمور وقتها، لكني صببت مجمل غضبي على رأس المؤلف الذي شعر بالملل من ديمومة الحكاية فحكم على البطل بالموت، وأنهى عالمه بعد أن فرغ منه، خلقه على الورق بلا سبب وأنهاه بلا سبب.

بعد سنوات شهدت نهايات عديدة حتى اعتدتها، اعتدت مشاهدة رفقاء الطفولة والشباب يتساقطون واحدًا تلو الآخر من صفحة الموجودات، بعد عشرين عامًا حضرت جنازة رفيق الطفولة، أحمد أحد طرفي التوأم، ألطفهما ويومها وتوأمه محمد يقف ليأخذ العزاء تعجبت أن أحدهما مات وترك الآخر.

عرفته هو وتوأمه في أول يوم لي بالمدرسة، كنت طفلاً خائفاً كجرو مبلول أضع أول قدم في أول صف من صفوف عوالم تدجين النشأ منتزعًا من دفء صدر أمي إلى مفرخة جيلي كي ألقن أكاذيب الجيل السابق عن الأسبق

عـن الأسـبق حـتى تصـل العنعنـة إلى عـصر الديناصـورات وأسـاطير الآلهـة الزائفـة المتحللـة.

أدخـل إلى الصـف فـلا أجـد مقعـدًا شـاغرًا فيشـير إليَّ صبيـين أسـمرين متطابقـين كجـروي كلـب، يفسـحا لي المجال فأجلـس جوارهمـا.

انهمـرت مـع وجودهمـا عـليَّ روايـات الجيـب والمغامرات المترجمـة، عوالـم مـن التشـويق والأدب اللاهـث القفـاز، يـوم عزائـه أيقنـت أن صديقـي الهنـدي الطيـب قـد مـات لترافقـني النهايـات الطبيعيـة المحزنـة المغمـورة بالخـذلان وخيبـة الأمـل فتعلمـت الـدرس جيـدًا لكـن بعـد فـوات الآوان، أن كل النهايـات طبيعيـة وطبيعـة الأشـياء هـي الحـزن والخـذلان والفـراق، لا شـيئا يبقـى.

***

ـ٢ـ

ضوء الظهيرة محجوزاً خارج البيت يتسلل بعضاً منه كماء ينبجس من تربة ندية عبر فرجة النافذة، دخان تبغ أبي لا يتوقف عن الانبعاث، أجلس على المقعد المقابل له أتابع رسمه بأنفاس الدخان، روحي تفيض بخفة أقف ثم أعتلي الأريكة أمام نظرات أبي الفارغة، أطارد خيوط الدخان المسكوب في الضوء، أحاول أن أمسكه فيراوغني، أستشعره كلحن له أثر نافذ، لكني لا أقدر على وصفه أو التعبير عنه بكلمات، شعور مجرد مختال مخايل مختل.

أبي يتابعني فيتوقف عن الكتابة، يمتص أنفاس من لفافة التبغ بعمق، ثم يطلقها كثيفة سخية في وجه

النـور، تتشـكل دوائـر وأمواجـاً بلـون الحليـب، أصخـب وأقفـز أخـوض غمارهـا مسـحورًا.

- كفى ..أجلس

يقولها أبي بحزم، انصاع مطرقاً الرأس فيستطرد

- الرجـل يتقبـل مصـيره بـرأس مرفـوع لا بحـزن وإطـراق يـا عمـر.

قالهـا وهـو يشـيح ببـصره عـني، يأمـرني أن أرفـع صـوت المذيـاع، فينسـاب صـوت عبـد الحليـم حافـظ في الغرفـة يغـني (عـلى قـد الشـوق) أعـود إلى جلسـتي ألعـب بجنديـين بلاسـتيكين أهداهمـا لي خـالي.

أخـوض بهمـا مغامـرة متخيلـة، أتبـنى خطابهمـا، أتحـدث بلسـانهما، أخـوض معركتهمـا وأبي منكـب عـلى الكتابـة.

اليـوم دائـرة مكـررة، أمـي تعمـل في مدرسـة تخـرج باكـرًا، ومـع خروجهـا يصحـو أبي ويوقظـني يحـضر إفطـاراً شـحيحًا نفطـر سـويًا ثـم يجلـس إلى الطاولـة، يطالـع أولًا بعـض الكتـب مـن مكتبتـه العامـرة، ثـم يسـتغرق في كتابتـه الغامضـة حـتى موعـد عـودة أمـي إلى البيـت.

كنت في فترة التفتح، لم أناهز العاشرة بعد، علمني القراءة والحروف والأرقام والأبجدية الإنجليزية ومعاني كلماتها، كان يشير إلى أي غرض بالبيت أو من شرفتنا ويسألني عن مقابله بالإنجليزية أجيب أحيانًا وكثيرًا أتلعثم فيلكزني في ظهري حتى أتخلص من لعثمتي المرضية وأجيبه، أحاول تجنب تقريعه فصببت على نفسي قدرة التركيز حتى دخلت إلى المدرسة وفُتح أمامي عالم جديد من الكلمات والكتب مع التوأم.

انتشرت في زماننا روايات الجيب كالنار في الهشيم بين أوساط النشءوالشباب الملهوفين على تذوق أي حروف، مغامرات وألغاز وأبطال لا ينهزمون كما في الأفلام الهوليودية، لكن قُدمت لنا في قالب مصري أو كما كان يتشدق أحد نجوم تلك النوعية من الكُتاب بأنه يقدم للشباب حكايات جيمس بوند وأبطال الأدب العالمي في قالب من قيمنا المجتمعية المحافظة والحث على زراعة الأخلاق النبيلة في الشباب، وقتها كنت مسحورًا به وبسلاسته وبغزارته، وحروفه لي كانت كحروف في كتاب مقدس نقلد أساليبه في محاولتنا الأولى في كتابة مشابهة

لمـا يكتـب، أبطالـه هـم أبطـالي الشـخصيين، لكـن مـع وصـولي إلى سـن الشـك في كل شـيئ بعـد أن فارقتـني الأحـلام والرومنسـيات والقيـم المعلبـة كلمـا أتذكـر أو أشـاهد لقـاءً لهـذا الكاتـب أصـاب بالغثيـان وأيقـن أنهـم أفسـدونا بشـكل عميـق.

***

العالـم كان متسـعاً علينـا ؛ لأنـه كان محـدوداً بحـدود شـارعنا الطويـل ومدرسـتنا، كنـت أشـعر بطعـم الـبراح كلمـا خطـت قدمـاي خطـوة جديـدة بمـكان جديـد في حينـا كمكتشـفي العالـم في القـرون السـالفة أتمـدد جغرافيـا وأشـكل مـن خطـواتي فسـحة تلـو الأخـرى.

الرائحـة المنثـورة في أجـواء حيّنًـا كأنهـا مجسـدة بشـكل مـادي، جسـد معجـون مـن رائحـة التوابـل في محـل العطـارة ومزيـج مـن رائحـة أعـواد القصـب المتخمـرة القادمـة مـن بقايـا العـصر أمـام محـل العصـير، رائحـة الغسـيل المنشـور بالشرفـات المتمايـل بفعـل النسـائم بغنـج، رائحـة الكيروسـين والمـازوت وعـوادم سـيارات الميـدان، رائحـة دهـان طـازج موجـودة دائمًـا لتعلـن عـن توفـر بعضـاً مـن

النقـود لأحـد الجـيران فدهـن وجهـة بيتـه، رائحـة الخريـف الحميميـة والمكثفـة عـلى صفحـات دفاتـر الدراسـة والأوراق في مكتبـة حيّنـا، رائحـة الـتراب المعجـون بمـاء يواظـب عـلى رشـه عاطـف القـرش أمـام المقهـى عنـد كل مغـرب شـمس، رائحـة الفـل في يـد جارتنـا صبـاح وهـي تقـف في شرفتهـا تدنـدن أمامـي أغنيـة مفعمـة بالشـجو وهـي تهـز جسـدها فيرتـج نهداهـا طربًـا محـاولان الفـرار مـن شـق الجلبـاب الواسـعة، رائحـة جلبابهـا المغسـول بشـهوة مكتومـة ووعود الغوايـة.

كنـا ثلاثـة، أنـا والتـوأم نتبـادل القصـص والكتـب المصـورة وكل مـا لـه علاقـة بمتعتنـا الصغـيرة، كل شـهر نقـوم بجمـع مبلغًـا مـن مصروفنـا نتشـارك بـه في شراء أعداد جديـدة نقرأهـا، ثـم نتبادلهـا ثـم نقـوم بتمثيـل أحداثهـا، نـوزع الأدوار ونتبادلهـا، البطـل والشريـر ونحـن نضحـك ونلهـو.

دراجاتنـا تعرفهـا طرقـات حيّنـا، دراجـتي الحمـراء العزيزة الـتي حصلـت عـلى هـا بعـد مشـقة ولآي، لظـروف أبي المتعـثرة دائمًـا وأمـي الـتي تتكفـل بـكل شئ عـن إيثـار وحـب

تارة وعن تجنب غضبة أبي تارة آخرى، حتى أنها توقفت بمطالبته بالحصول على عمل كما كانت تفعل و استغرقت في وظيفتها طوال الأسبوع بالإضافة إلى مهام البيت.

في غضون شهرين وفرت مبلغًا خارج الحسبة المعتادة لتبتاع لي دراجتي الحمراء، كما سمعت ليلتها مبررها أمام غضب أبي بأنها لا تريد لابنها بأن يستشعر الحرج مع أصدقائه و يترسب داخله بأنه أقل من أقرانه.

مع حلول الصباح اصطحبتني أمي إلى وسط المدينة لأختار الدراجة من عند أحد المحلات الكبرى، اخترت الدراجة الأثيرة أو بالأحرى هي من اختارتني كأنها غازلتني بشرائطها الملونة المدلاة من مقبضيها وإطاريها الملونان بالأصفر والحروف الإنجليزية على عارضتها ملونة بالأزرق.

أمي وهي تعطي البائع الثمن أخبرها أن السعر زاد قليلا، نظرت إليَّ وأنا ألمس بدن الدراجة بسعادة فقلبت حقيبتها لاستكمال المبلغ المتبقي، يومها أمي أمام فرحتي دفعت كل قرش تملكه في حقيبتها حتى لم يتبقى لها حتى ثمن أجرة الأتوبيس، ابتسمت لي وقالت :

- مـا رأيـك يـا عمـر أن لا نركـب المواصـلات، اركـب دراجتـك وسـنتمشى حـتى البيـت حـتى تعتـاد عـلى قيادتهـا أمـام عيـني لكـن شريطـة أن تسـير جـواري .

رحلتنـا الطويلـة المرهقـة إلى البيـت حولتهـا أمي مـن أزمة ماليـة إلى كرنفـال مـن الفـرح واحتفاليـة ترحيـب بدراجـتي.

ليلتهـا غرقـت في سـهاد ضـج مضجعـي مـن الإثـارة، أنتظر الغـد حـتى أبـدأ اللعـب بهـا وأتفاخـر بهـا أمـام التـوأم، لمـا أتى الصبـاح ارتديـت ملابـسي ورسـمت خريطـة ملونة لمسـارنا أنـا والتـوأم و إلى أين سـنتجه وأي دروب جديدة سنكتشـفها، سـحبت دراجـتي مـن أمـام بـاب الشـقة وأنـا أهـم بالـنزول حـتى أتى صـوت أبي ليخـبرني أن لا خـروج لي اليـوم.

أمـام دموعـي وتسـاؤلي صفعـني حـتى لا أبـكي فتذوقـت طعـم القهـر ممزوجًـا مـع ملوحـة العـبرات لأول مـرة في عمـري، لـم يبـدي سـبباً مـن أسـبابه الداخليـة في منعـي، لكنـه أعقـب منعـي مـن الخـروج بمنعـي عـن الـرد عـلى نـداءات التـوأم حـتى ملاَّ وذهبـا إلى حـال سـبيلهما مخلفـاني في النسـيان أجلـس أمـام التلفـاز لأشـاهد بعـين فارغـة مبـاراة في العـدو تجـري في دورة أوليمبيـة.

اليـوم التـالي أيقظنـي أبي وطلـب مـني أن أذهـب لإحضـار الجريـدة لـه وعلبـة تبـغ وطلـب مـني أن آخـذ الدراجـة، قالها كأن أمـس لـم يكـن، ابتهجـت بهجـة منقوصـة بفعـل الريبـة وعـدم توقـع أفعالـه، انطلقـت كطائـر بالدراجـة يغمـرني الهـواء، حـر، منعتـق أملـك شـيئاً لي لأول مـرة، ألـوك لقيمـات السـعادةالآنية.

اخـترت طريقـاً أطـول حـتى أسـتمتع بقيـادة الدراجة وقت أطـول، حـتى مـررت بشـارع عنـد أطـراف حيَّنـا، أتتـني ضربـة أطاحـة بي مـن فـوق دراجـتي، ملئـت ركبـتي بالسـحجات، تطلعـت فزعًـا فوجـدت حفنـة مـن الأولاد يكـبروني سـنا، لقطـاء ومـشردون ومشروعـات لأوغـاد مسـتقبليين

كانـوا خمسـة أو أكـثر لا أتذكـر سـوى محاولاتهـم المسـتميتة في انـتزاع الدراجـة و سرقتهـا، أنـا متشـبث بهـا، ألقيـت بجسـدي عليهـا متحمـلا ضرباتهـم المنهالـة بغشـم عـلى جسـدي، تحملـت رغـم الألـم و المهانـة وذودت عـن حلمـي الحديـدي .

سمعت سبابهم المصاحب، خارت قوتهم مع اشتداد مقاومتي حتى لاح الفرج عندما سمعت صوت الشيخ علي يزجرهم، رأيتهم يركضون منهزمين يصفوني بالعناد.

لم أنكسر أو أبكي وأنا أعود إلى البيت في حماية الشيخ علي حتى استقبلتنا نظرات أبي المتفحصة، أخبره الشيخ علي بالحادثة مد أبي يده ليدير رأسي ويتفحصها ثم ابتسم، وقال للشيخ متسائلاً :

- لم يبكِ، أليس كذلك؟

أومأ الرجل بالإيجاب ضمني أبي إلى صدره، ثم نظر إلى عيني وقال :

- جدع، الآن تعلمتَ أن العالم مكان غير آمن وأنك عليك قدر القتال والمقاومة ..أحسنت يا عمر أنت اليوم ابني حقا.

طبع قبلة على جبيني و شكر الشيخ، ثم طلب مني أن أغتسل، أمي فزعت و بكت و هي تحتضنني بعد أن عادت من العمل واتهمت أبي بأنه السبب لأنه أهملني ليجيبها

- عمر فطم يا زينب، دعيه يجرح و يتعارك، ابن اسم الله لا يعيش طويلا.

أجالسه كالعادة هو يكتب و يدخن ويدندن بمزاج رائق أغنية عبد الحليم (عشانك يا قمر..اطلع لك القمر)، أمد يدي لأخذ ورقتين من رزمة أوراقه البيضاء و قلم ثم أعود إلى مقعدي لأكتب أول مشهد ألح عليَّ كي أسجله، كتبت يومي كما هو ما حدث و بعد أن فرغت مد أبي يده ليأخذ الورقتين و يقرأهما بصوت مسموع على وهو يصحح لي أخطائي الإملائية والإنشائية ثم قال - معقول - ما كتبته، من الساعة ستدون يومياتك يا فتى.

***

ـ٣ـ

يومياتي.. شرنقة الكتابة التي دخلت في أطوار وأطوار التحور كشرنقة مطاطية تتثائب بين طبقات من الشمع والكلس .. دفتر له غلاف بني يشوبه احمراراً كدم طازج مشتعل بالحياة.

أنا في العاشرة من عمري، فتى هزيل البنية لكني أملك دراجة ودفترًا وقلمًا وهبني إياه أبي و هو يخبرني أنه من نوع غالي الثمن أهداه له أستاذه و مثله الأعلى عندما كان طالب ماجيستير بكلية الآداب.

- عن ماذا أكتب يا أبي؟

- اكتب عن أي شئ وكل شئ، عن يومك و عن رفاقك، عن الشارع و أهله ولا تشغل بالك بالإملاء والتراكيب، اكتب حتى بلغة معيبة مفككة، اخطأ فالخطأ هو ما يعلمنا.

أنصت إليه بتمعن وتركيز، تبقى أقل من شهرين على عودتي إلى المدرسة على أن أستغل الأيام، وقتها كان الورق والقلم هو مرادف لوجه، أبي الذي كان فقط يبتسم عندما ينغمر و يستغرق في الكتابة، شعرت بالحبور والخفة والأهمية مع الدفتر والقلم شعرت أني صنو كل الكتاب الذين يكتبون القصص التي أقتنيها، هؤلاء الأشخاص أصحاب الصور الصغيرة المبتسمة بمودة دوما على غلاف الكتب الخلفي، فيما بعد عندما كنت أتعرف على كاتب جديد بالنسبة لي أشعر بالإجلال كأنهم حافظوا السر والمختارون لحمل أختام السحر النائم، بين الحروف وأدلّاء سُبل عالم الخيال والمعرفة.

أول صفحة باليوميات أتذكرها جيدا لأنها تحمل حدث مبهج، أبي وأمي يومها كانا في انتظار وصول جدتي من الإسكندرية في زيارتها السنوية، أنا كنت في قمة

سعادتي، جدتي هي بابا نويل الخاص بي، تأتي محملة بما لذ و طاب من الحلوى خصوصا الملبن و تحمل حكايات تقصها عليَّ كل يوم بعد الغداء و هي تصنع قهوتها المحوجة على سبرتاية تحملها معها أينما رحلت وحلت.

صبيحة ذالك اليوم أتت أمي مبكرة عن موعدها الطبيعي وأبي كان بالشرفة يجلس بصحبة ضيفه الأستاذ شعبان جارنا، رجل نحيف ذو شعر أشيب فضي لامع يتناثر على وجهه الطفولي الباسم النضر كوجه طفل كأنه ولد أشيب، رائحة عطره النفاذة التي كانت تصيبني بالعطاس، رائحة ليمون وقحة مقتحمة ورائحة تعرق فظة.

الأستاذ شعبان كان الجار الأوحد الذي يستضيفه أبي في بيتنا، يجالسه بشرفتنا التي تطل على دكان البقالة و مقهي الورداني و بينهما محل خمور ميخائيل الخفي، يتحدث شعبان طوال الجلسة بلا توقف و أبي يقابل كل ثرثرته بابتسامة لا يتكلم إلا لماما.

كنت أجلس جوارهما أنصت إلى حديث شعبان المتواصل عن كل شئ، شعبان يمارس هوايته يتحدث عن الشارع كأنه مذيع أخبار متمرس تتطاير النميمة المسلية

من فمه بسلاسة مغرقة بالبهار ويسخنها على نار الترقب عندما يقف على حفة القصة ليسأل أبي : هل يكمل أو ما هو رأي أبي فما سمع؟ يهز أبي رأسه كل مرة بروتينية فتنفرج أسارير شعبان ويستكمل الحكي، و بعدها ينتقل إلى الكرة وأخبار اللاعبين وآراءه الخاصة وما دار هنا أو هناك، ثم يرتفع بسقف الحديث إلى السياسة والوضع العام المتجمد على يد مبارك و يمدحه و يذهب إلى أخبار حرب الخليج و رأيه في صدام حسين الذي يقرنه بالترحم على جمال عبد الناصر هنا يتدخل أبي بعبارته الشهيرة .

- أنا أحتقر كل من جلس على عرش مصر من أول نارمر حتى مبارك.

****

شعبان بعدها ينتقل إلى أحاديث الفن والسينما وفي نهاية الجلسة يهدي أبي عدد روز اليوسف الجديد، شعبان يعمل في أرشيف مؤسسة روز اليوسف واقترانه باسم المؤسسه يصبغ عليه أهمية في شارعنا، الناس يقرنون اسمه بلقب الصحفي وهو جاراهم في ادّعائهم

فأضفى على نفسه مسحة الصحفي المهم الواصل لدرجة أنه كان وجهة لكل صاحب مظلمة وكل من يبتغي رأيًا سديداً في أي أمر من أمور الحياة وصولاً إلى أنه مع تهافت الناس عليه قام بتدشين أول نادي أدبي بشارعنا ووضع لافتة خشبية على وجهة شقته تقول (شعبان حسين صحفي و رئيس نادي الأدباء المبدعين).

يستقبل كل من يخيل إليه أنه يملك موهبة والباحثين عن الشهرة وشعراء وكتاب قصة وحتى من يبحث عن حلم العمل في أروقة الصحف، هذا المشروع الأدبي تمخض فقط على جلسة كل ليلة خميس في شقة شعبان أو على مقهى الورداني الذي أقنعه شعبان أن يضع بجوار اسم المقهى عبارة (مقهى الأدباء والفنانين) وأيضا رحلة شهرية إلى فايد أو الفيوم كفاعلية سنها شعبان موهمًا الشباب بأن هذه الرحلات هي تفاعل إبداعي حي، بالطبع كل هذا لم يقدم أي نتاج أدبي أو ظهر فيه أديب واحد، اللهم إلا أن النادي والرحلات وفرت لشعبان دخل كبير جراء اشتراكات وتبرعات الحمقى الشهرية.

كل هـذا علـم بـه أبي وكل تلـك الأمـور لـم تقنـع شـعبان أن يمتنـع عـلى ممارسـة تدليسـه أمـام أبي كل جلسـة في شرفتنا فـكان يلـح عـلى أبي كل مـرة أن ينضـم لـه في إدارة المنتـدى لعلمـه بشـغف أبي الأدبي وتخصصـه الأصـلي، يوعـده أبي ويحنـث وشـعبان لا ينفـك أن يطلـب في دوائـر ودوائـر مـن الخطـل المثابـر.

***

الأطفـال يلعبـون في الطريـق والمقهـى يعـج بالحركـة وصـوت أم كلثـوم يغـرق مسـامع الهائمـين (سـوف تلهـو بنـا الحيـاة وتسـخر) وكل بضعـة دقائـق يقاطـع صـوت عاطـف القـرش نـادل المقهـى التناغـم ويخرجـني مـن شرودي في جلسـتي أتابـع مجريـات نهـر الطريـق ويسـحبني مـن تلصصي عـلى شرفـات ونوافـذ جـيراني، الفعـل الـذي أصابـني بالهـوس مؤخـرًا وجعـل تواجـدي مـع التـوأم نـادراً، فقـط أجلـس في ركـن الشرفـة المطلـة عـلى كل حيـاة تـدب بالشـارع أرى وأخـزن وأسـتغرق وأسـجل في دفـتري البـني ملاحظـات عـن حكايـات في طـور الاكتمـال، أتلصـص عـلى جـيراني أهيـم أكـثر في الأنـثى جـارتي وأتابـع عالمهـا.

انتزعني صوت عاطف القرش مرة أخرى وهو يصيح بصوته العريض الأجش بحرقة كالدراويش.

(يا عيني على اللي حب ولا طالشي)

يرد عليه كل مرة ضحك زملائه أو تغامز الزبائن في خفاء أو بسخرية فجة أحايين أخرى، أو يتفاعل جار مجاملاً عاطف بجسده الربعة، ووجهه ذو الملامح الجنوبية القاسية الذي يكمله شارب كاث، وعين حالمة حبس بها الشعر الدامع منذ سنين.

***

أبي يأتي يجلس على مقعد خشبي متهالك يفتح الجريدة على صفحة الكلمات المتقاطعة يباشر حلها وهو يلوك لفافة التبغ، ويقطع تركيزه بسؤالي عن معنى كلمة أو مرادف لكلمه مطلوبة بالكلمات المتقاطعة، أقف جواره وأميل لأرى المربعات المنمنمة وأحاول، يخبرني أن الكلمات المتقاطعة تنشط الذهن البليد فأطلب منه أن يسمح لي بحلها فيوافق.

تصبح عادة صاحبتني حتى كبرت وشاهدت انقراض الصحف الورقية، يومها أحسست بالضياع وفقدان جزءاً من أبي.

أيام الصيف تمر وأنا منكب على الكتابة والتلصص كالممسوس، كلما زاد عدد الصفحات المسودة بالحبر كنت أشعر أني أزيد معها وأكبر .

شعبان يواظب على الزيارة، هذه المرة بدى كأنه سوف يحلق من السعادة، فتحت له الباب فوجدته واقفا في بذته الصيفية ذات اللون الكاكي، تلك البذات الكفاحية موديل (ماو تسي تونج) التي أغرقت السوق المصرية وقتها، كان يحمل أكياسًا بلاستيكية ميزت منهم اثنتين واحدًا شفافاً به ثمرات المانجو وآخر داخله لفافة ورقية أعلنت رائحتها عن وجبة كباب، ولكنه أخفى كيسًا أسوداً غامضاً يبدو من تمدده وصوت زجاج يتخبط أنه به زجاجات شئ ما، حياني بصوته الحاد وأعطاني أكياس الطعام واحتفظ بالكيس الأسود، هلَّ أبي من الغرفة ليستقبله، و لكن نظرات الملل الآتية من عين أبي لم تصنع أي فرق مع شعبان الذي عاجل أبي كأنه يبرر الزيارة

- عنـدي لـك خـبر بمليـون جنيـه يـا محمـود، رجـب عويـس بعـد أن قابلتـه وقدمـت لـه عينـة مـن شـغلك وافـق عـلى اسـتخدامك (المقصـود : توظيفـك)

وضعـت الطعـام عـلى الطاولـة مـع قـدوم أمـي لتحـي شـعبان حسـين، ثـم أثنـت عـلى ذوقـه

- مكلف نفسك ليه يا أستاذ شعبان ده البيت بيتك.

بعـد أن انتهينـا مـن الطعـام جلـس أبي وشـعبان يتحدثان بصـوت منخفـض في الشرفـة و أمـي منعتـني أن أنضـم إليهما هـذه المـرة، لكـني انتهـزت فرصـة تقديـم الشـاي وسـمعت شـعبان يخـبر أبي عـن بيـع مقـالات لأبي ومبلـغ الأجـر الزهيـد، بعـد أن فرغـا عـدت لأنضـم لهمـا وأمامهمـا الكيـس الأسـود، أخـرج منـه شـعبان زجاجـات خـضراء كنـت أول مـرة أشـاهد بهـا زجاجـة البـيرة بنجمتهـا الذهبيـة.

- ما هذا يا أبي؟

- هذا عصير شعير يا عمر للكبار علاج للكلى

يجيـب شـعبان ضاحـكا، أبي يفتـح الزجاجـة يرشـف منهـا بنهـم وهنـا يتبـع شـعبان حديثـه المسـتمر عـن أحـوال كل

شئ، بعد قليل يطلب أبي من أمي أن تحضر كوبًا فارغًا فتحضره ليصب به قليل من المشروب الذهبي، ثم يناولني إياها أمام نظرات شعبان المشدوهة.

- اشرب.

أمسك الكوب وداخله السائل الأصفر الفائر تحت رغوة بيضاء ناعمة أشم الرائحة النفاذة فأرتعش، لم أكرهها بل شعرت أنها جزءاً من رائحة أبي، أتت أمي معترضة بحدة

- حرام عليك يا محمود.

يصمتها أبي فتصمت صاغرة ويعيد عليَّ الطلب، اشرب أول رشفة من السائل العجيب أشعر بمرارة في حلقي وصدري، بعد دقائق يغمرني الانتعاش ومحبة مبهمة تطوق مجالي فأضحك وأتصل برحم الكون.

- هل تعلم يا أستاذ شعبان لم يطلقون على مصر لقب أم الدنيا؟

ينتفخ شعبان في بذته وهو يرسم نظرة المثقف الجاد المفكر على وجهه فتهتز أوداجه

- لأنها أصل الحضارة يا أستاذ محمود.

- يضحك أبي تحت تأثير بدايات السُكر فشعرت أنه سعيد وفرح وعلى طبيعته جراء الشراب

- ليس هذا فقط ..مصر أم الدنيا لأنها اخترعت الآلهة والدين والضمير والدولة المركزية و النفاق والبيرة .

يهز شعبان رأسه موافقاً أبي مدّعيا الفهم، وهذا ما دفع أبي أن يستغرق في ضحك هيستيري، يصمت شعبان ويشرد أبي في ضوء القمر وأنا أرقد على أرضية الشرفة أحتضن نسمات ليل أواخر الصيف متتبعا صوت عاطف القرش يصدح وسط الفضاءات بشجو.

(يا عيني على اللي حب ولا طالشي)

***

-٤-

الشاشـة تتقـيئ قئ باهـت باللونـين الأبيـض والأسـود، الصبـاح ممـل، علهـا المـرة الأولى الـتي يـزورني شـعور الضجـر في حيـاتي، طعمـه الأول، طعـم معـدني كبقايـا الصـدأ السـابح في سـائل محـلي بالأسـبرتام، كطعـم مـربى التـين الصناعـي بعلـب (قهـا).

أتململ، أقـوم كل فينـة وفينـة أديـر بكـرة القنـوات، ثلاثـة قنـوات، أولى وثانيـة وثالثـة، برامـج إخباريـة مليئـة بالرطانـة، مبـاراة بائتـة لكـرة السـلة وعـرض تخـرج إحـدى دفعـات الكليـات العسـكرية، أتركـه وأجلـس أتابـع المارشـات بطبولهـا الحماسـية وصـوت نـداء الميكروفـون وصـورة

كبيرة مضخمة للرئيس الأب تتصدرها ابتسامته المسطحة تشرف على المشهد من أعلى نقطة كأنه نقش لرع أو صورة الرب في النقوش الكنَّسية بشكل أقرب للمحاكاة الساخرة، الكاميرا تطوف على المشهد مع قطع انتقالي كل لحظة لتستقر على وجه الرئيس في نظارته الشمسية السوداء، يجلس في الصفوف الأولى يهز رأسه برضا، النظارة الشمسية التي حلت محل الشارب الستاليني النضالي وقتها بعد أن حلت محل علامة الصلاة على الجبهة في عصر الانفتاح.

يشق غلالة الملل صوت جارتي صباح وهي تضحك، أقوم إلى النافذة مستكشفًا، شرفتها تدنو نافذتي بطابق واحد في البناية المقابلة مما أتاح لي رؤية صقر عليم فوقية، كانت تقوم بنشر ملابس وملاءات مغسولة على حبال شرفتها، وجهها متورد مشع، تربط شعرها بمنديل ملون وثوب حريري يستر بدنها مربوط بشريط هش فبدت كفراشة.

كانت تقوم بالنشر وهي تغني وتتبادل الدعابات الوقحة مع بعض الجارات، مع دوام حركتها انحل

الشريط ففتح الثوب لأكتشفت للأول مرة طعم فوران الدم تحت مسام جلدي، ثم أنحل أكثر فأكثر ليكشف الكشف التام فتتجلى الحقيقة في قميص أسود يكشف لا يستر، يؤطر حدود البدن بالفتنة فيزيده فتنة وأنّا افتتان.

صدرها الأبيض و مفرق النهدين لامع كثغر نجمة ولا يخفي شيئاً غير الحلمتين والبطن المتكور، الفخذ الأبيض الناصع الرخامي المشرب بحمرة ورود .

انتفضت ومادت بي غرفتي وانطبقت الجدران على صدري حتى وجدت صباح ترنو إلى مكمني تنظر لي بسخرية، ثم أطلقت ضحكة متهتكة وهي تلملم ثوبها ببطئ مثير على جسدها دون أن تحكم إغلاقه.

أتاني نداء أبي يأمرني أن أرتدي ملابس الخروج، أطيعه وأرتدي ملابسي كيفما اتفق وأتبع خطواته إلى الشارع وإلى موقف الأوتوبيسات بالميدان يحملنا الأتوبيس إلى وسط المدينة

***

الجـو قائـظ، شـوارع المدينـة بعـد الظهـيرة تغـلي، البـشر منتـشرون كـروؤس دمامـل تقيحـت فأفـرزت سـوائل صفـراء وخـضراء، السـيارات أقفـاص تعذيـب بـدت كالثـور النحـاسي الأغريقـي تزحـف و تـنز حـرارة وتبث عـوادم ورائحة الكاوتشـوك المتمـدد عـلى الأسـفلت المشـتعل ورائحـة التعـرق البشريـة، ميـاه العـرق المالـح تجـري كسـيلان ألـف نهـر مـن وسـط هضـاب أفريقيـا التعسـة.

أبي لا يعبـأ، يفتـح قميصـه حـتى بـان صـدره، يتلـذذ بالعـرق واللهيـب يندمـج في قسـوة الطقـس ومكابـدات البشر البهلوانيـة، تتـدلى لفافـة التبـغ السـوبر - الـتي لا تنتهـي- مـن شـفتاه، منتصـب القامـة كإلـه بابـلي نـزل في صـورة بشريـة ليمـشي في الطرقـات ويبتسـم ويتلمـظ المعانـاة، كان (أنكيـدو) و القيـظ ثـور (أنانـا) يناطحـه فيصرعـه أرضًـا ثـم يعـبر عـلى جثتـه.

كنـت أحـاول مجـاراة خطواتـه الواسـعة فبـدى كعمـلاق مـن التيتـان وأنـا برغـوث يهـرول في أثـره، مـتى بـدأت في محـاكاة مشـيته، خطـوة واسـعة وأخـرى أضيـق قليـلاً مـن

يساره سببها مشكلة ولد بها في فخذه الأيسر، أحاكيه حتى أجاريه حتى أتماهى معه، حتى أكونه.

اجتزنا شارع طلعت حرب كأننا نجتاز دغل متشابك، باعة كالقرود يتخطفون المارة كموز، مرور يزداد فوراناً وتكدسًا، شرطي مرور تثاءب عند حيز الظل جوار باب بنك مصر، ألوان وملابس، نساء يتحركون بلا هدى أو وجهة، رجال تدخن كالمداخن عند وجهات المحلات يلهبون ظهر كل امرأة تمر بنظرات شهوانية حمراء، كتب عذاب قبر وحجاب و ثعبان أقرع ونهاية العالم تجاور كتب ليلة الدخلة والقصص الأيروتيكية الرخيصة على فرشة بائع الكتب والجرائد، صور الزعيم بابتسامته المسطحة في أوضاع لا نهائية تتدلى من الفضاء مع كلمات المبايعة، النادي اليوناني مكانه متحصن بضياع ذكرى عصر قديم وسط الغوغاء، لافتة خشبية خضراء للحزب الذي يقدس زعيم راحل آخر تتصدر البناية المسلولة

أصوات أغاني مختلطة في مزيج متنافر مزعج تعبر عن ذوق مختلف تسيل كالبول في مراحيض الميدان، شركات طيران وسماسرة عروض، (زوروا لبنان)، خشب واجهة

مقهى ريش الاستعماري يقهقه في وجه انحطاط الشارع، ممرات كمتاهة مينوس الأسطورية تتمدد بين البنايات فتمنيت أن أعلم إلى أين تؤدي يومًا، خرتية يقفون كحفنة من الصيادين أمام جروبي لاصطياد سائحات شابات أو عجائز، وجوههم السمراء تحمل أكاذيب أن الذكر المصري له فحولة الثيران أمام القادمات الشقروات من بلاد ما وراء البحار يعرضون ذكر مختون كتذكرة للجنة بلا عودة.

نعبر الميدان وندلف إلى مكتبة مدبولي، أقف جوار أبي مشدوها، أتطلع إلى أغلفة وأشم رائحة أوراقها المعجونة بالحبر والديزيل، يتحرك أبي متفقداً عناوين الكتب، أشب قليلا أضع أذني اليمنى على الكعوب اللامعة المرصوصة أغمض عيني وأستمع إلى الصمت المفعم بالأصوات الخفية، كأني أنصت إلى صدى أمواج البحر المحزنة في صدفة وجدتها على رمال الشاطئ.

يغيب أبي قليلا في حديث مع البائع الكهل الذي يقاتل آلام المفاصل والكساد وثقل ظل الطقس المبعثر كذرات من الدقيق في أجواء القاهرة الضجرة بلا أحداث وبلا عجلة زمن.

أبي يحمل خمسة مجلدات من القطع الكبير بأغلفتها الناصعة يضعها ثم يحاسب البائع، يخرج البائع أكياسًا بلاستيكية بلون ريم المستنقعات، ثلاثة أكياس كبار يريح مجلدان في اثنتين منهم و مجلد وحيد في آخر الأكياس، ألمح صورة الكاتب على الغلاف بابتسامته الودودة وعويناته العريضة ونظرته المتلاعبة التي فقدت الدهشة واسمه لامع بحروف مذهبة جوار العنوان (نجيب محفوظ: الأعمال الكاملة) .

يحمل أبي كيسين ويترك المجلد الوحيد، أمسكه فيهوي بذراعي تحت الثقل، ينظر لي أبي و يقول

- احمله ولا تشتكي، حتى تتعلم قيمة الكتب وتفتح عقلك وتقوي ذراعك الهزيلة.

أجرجر جسدي كعود من البوص نبت ضد تيار مجرى مائي، أبي يسبقني لا ينظر خلفه كأنه يتبع وصية الرب إلى لوط ساعة خروجه من سدوم وعمورة، يحمل الكيسان كأنهما بلا وزن، يلوك لفافة تبغه الغير مشتعلة وتحت أبطه المظروف البني الكبير الذي يحمله منذ الصباح، ينتظرني حتى نعبر الطريق وهو يسألني

- هل تشعر بالجوع؟

نفيت رغبتي في الأكل رغم الجوع الذي يعتصرني، قادني إلى داخل مطعم فلفلة وأراح أكياس الكتب على الطاولة ثم طلب الأكل والمظروف إياه لا يفارقه كأنه لا يأتمن أحداً في الأرض على مراقبته.

نلوك الشطائر بشهية متفاوتة، أغنية وطنية تحيط بنا، أبي يقضم ثم يتبع البلع بسحب نفس من لفافة التبغ، أسأله عن سبب هذه العادة يخبرني ليهضم أسرع، وبعد أن انتهينا من الأكل أتبعته بالحمولة الثمينة إلى داخل شارع هدى شعراوي نعرج يسارًا عند أول ناصية، ثم نجلس على المقهى العريق، ينظر أبي إلى ساعة يده ثم يتجشأ بعمق، يطلب القهوة السادة من النادل و أخبره أنني أريد عصير الليمون فيطلب أبي لي شاياً يذهب النادل ويقول أبي بعمق

- عصير الليمون مشروب العجزة والمخنثين

بعد قليل أتى رجل في بذة كاملة سوداء ورابطة عنقه تحبس عرقه فحوّلت لون ياقة القميص إلى لون القذارة،

رائحـة عطـره تسـبقه تصيـب بالانقبـاض، سـلّم وجلـس، داعـب شـعري في تحبـب مفتعـل وهـو يرمقـني بعـين نصّـاب.

- ما شاء الله يا أستاذ محمود ابنك وسيم.

قـدّم لـه أبي المظـروف بعـد أن طلـب لـه قهـوة، فـض الرجـل المظـروف، ثـم أخـرج منـه أربعـة ورقـات خـط عليهـم أبي شـيئاً مـا مـن غوامضـه، قـرأ الرجـل بنظـرات متسـارعة، ثـم ابتسـم برضـا و هـو يعيـد الأوراق إلى الظرف.

- الكتابـة جيدة..سـيكون لـك شـأناً يـا أسـتاذ محمـود، أتعلـم عندمـا رشـحك لي الأسـتاذ شـعبان كنـت متخوفـاً وهـو موظـف خـدوم بالمناسـبة لا أرفـض لـه طلـب، لكـن بعـد الـذي قـرأت تأكـدت أنـك صاحـب قلـمٍ رشـيقٍ.

وضـع يـده في جيـب سـترته الداخـلي ليخـرج ظرفـاً صغـيراً، ويتبـع

- هـذا هـو المبلـغ المتفـق عليـه سـيزيد مـع الوقـت لا تقلـق.

أخذه أبي ممتنًا ووضعه في جيب قميصه بحرص

- شكرًا يا أستاذ رجب ..يكفيني فخرًا أن الأستاذ رجب عويس أشاد بكتاباتي، لكن اعذرني عندي استفسار أخير متي ستعطيني فرصة أن أنشر مقالاتي باسمي؟

هزّ رجب رأسه وقال :

- إن شاء الله يا محمود لا تقلق كله بأوانه، الآن يجب أن أذهب وانتظر مني مكالمة لطلب الشغل الجديد.

يذهب الرجل إلى حال سبيله تاركًا أبي يسبح في بواطنه فأسأله :

- هل ستصبح مشهورًا يا أبي؟

- لا أعلم يا عمر.

يقطع حبل تساؤلاتي صوت (أحمد عيسى) صاخبًا وهو يتقدم إلينا من بين الطاولات

- محمود شاهين هنا !! إنها القيامة

****

يقوم أبي ليحتضن صديقه الذي يداعبني بود حقيقي ويجلس، أنصت إلى حديثهما بتمعن عن ذكريات الأيام الخوالي وأيام الجامعة وأخبار الرفاق، وأين حلّ بهم المقام في رحلة الحياة و عن العشيقات السابقات، وأحاديث الأدب والفن حتى تصدم مسامعي كلمة (سجن) عندها يتنحنح أبي كي يغير عيسى دفة الحديث إلى أمور أخرى.

كان نقيض أبي، منطلق هو وعفوي بنزق طفولي، قبيح اللسان وذو طلاوة وخفة دم يتنقل برشاقة بين حديث جدي وآخر هزلي كمايسترو متمرس.

في زمن آخر بعد أن ناهزت السادسة عشر علمت أمي بأني أدخن فغضبت غضبًا مزلزلاً، رغم أن تدخيني نتيجة طبيعية لنشأتي وسط حقول التبغ التي دخنها أبي، بعد أيام أتى عيسى لزيارتنا فأخبرته أمي بحالي ليعاتبني ؛ لأن أبي البيلوجي كان غائبًا هناك وراء البحار منغمس في حياته الجديدة فسألني متصنع الجدية.

- أتدخن يا عمر حقا؟

أجبتــه وأنــا غــارق في خجــلي أتطلــع إلى لوحــة جــون كونســتابل الطبيعيــة المقلــدة عــلى الحائــط و هــو يتتبــع مســار نظــري.

- جــون كونســتابل كان فنانــاً عظيمًــا، لكنــه كالكامــيرا يرســم كأنــه مصــور فوتغــرافي عــلى شــاطئ، جميــل إن أبــاك وأمــك مــا زالا يحتفظــان بهــا، أنــا رســمتها، قلــدت لوحــة مقلــدة عــن الأصليــة بالطبــع رغــم أني أكــره المدرســة الطبيعيــة في الرســم ، لكــن أظــن لوحــة الطاحونــة أفضــل مــن لوحــة لطبــق فاكهــة، نهايتــه، يــا عمــر لاتدخــن بشراهــة، لا لأن التدخــين مــضراً أو كمــا يقولــون التدخــين خــبز المثقفــين، لكــن دخــن بتعقــل ولا تفــرط حــتى تصــل إلى الخمســين وأنــت قــادر عــلى الاســتمرار في التدخــين بصحــة معقولــة.

ختــم كلامــه بضحكــة رنانــة ثــم نفحــني علبــة ســجائره المســتوردة.

بعــد أن ودع أبي عــلى موعــد بلقــاء قريــب أخــبره أنــه قابل فتــاة فرنســية في إحــدى المعــارض الدوليــة الــتي ينظمهــا المركــز الثقــافي الفرنــسي ومــع تعــدد اللقــاءات يبــدو أنــه أغــرم بهــا ثــم تركنــا، حديثهمــا أثــار تفكــيري وأكــثر نقاطــه

غمـوض بالنسـبة لي هـي نقطـة العمـل بالكتابـة واقـتران كتابـات أبي برجـب عويـس الـذي وصفـه عيـسى بالقـوّاد .

يومهـا تعلمـت اصطلاحًـا جديـدًا دونتـه عندمـا عـدت إلى المـنزل في دفـتري عـلى وعـدٍ لنفـسي أن أفهـم معنـاه وأبعاده يومًـا مـا، كان المصطلـح الـذي أطلقـه عيـسى لوصـف مهنـة أبي السريـة هـو الكاتـب الشـبح.

***

ـ ٥ ـ

هـرب دايدالـوس مـن أثينـا جـراء جريمـة قتـل لتلميـذه النجيـب (تالـوس) بدافـع الغـيرة مـن نبوغـه الـذي أظهـره في وقـت قيـاسي، فكانـت كريـت هـي الملجـأ للعبقـري الـذي أراد لنفسـه أن لا يكـرر فسـفك دمـاء ابـن أختـه.

أضـواء مشـاعل اسـتقبال تنـير الليـل بمرفـأ كريـت كأنهـا نـيران (كورونـوس) ترسـم حلقـة مـن النـور الأرضي المـوازي لشـموس الأكـوان، (مينـوس) الملـك في رهطـه يسـتقبلون الصانـع الفـذ الـذي اسـتأثر بـأسرار هيفيسـتيوس، بعـد أن اسـتقر لـه المقـام طالـب (مينـوس) الملـك المقابـل لمـا بذلـه لـه مـن حمايـة وملجـأ، طلـب منـه أن يبـني لـه تحفـة لا

مثيل لها في بلاد الإغريق قصر ستغار من دقة تصميمه آلهة الأولمب الحسودة المتبلطة.

الأسطورة تستعرض ما صنعه (دايدالوس) قصر التيه تحفة الأزمنة، ما كان من مينوس بعد أن أغرمت ابنته ومساعدة دايدلوس لها في ذبح وحش أبيها المدلل بأن جزاه بحبسه هو نفسه في المتاهه مع ابنه إيكاروس.

أقرأ الأسطورة وأرسم خرائط من المعرفة، المعرفة ما هي إلا جزر متناثرات تتابع كتأثير سقوط أحجار الدومينو، من وجد الرابط بينها ملك الصورة الكاملة.

أبي كان يكتب بحماس شديد وهذا ما انعكس على مزاجه الرائق، هاتف منزلنا ما انفك يرن ويرن ويرن فيرد أبي، ثم يستغرق في حديث عن نصوص ما يدون عناوينها على ورقة بتعجل استفهمت منه عن كنه محدثه اللحوح فأخبرني بمباشرة غريبة عليه إنه رجب عويس الذي قابلناه.

بعدها يظل يكتب ويكتب ثم يبيض ما يكتبه بخط منمق، وعندما ينهي الكتابة يضع كل موضوع على حدى

في ظرف، صباحًا يصطحبني معه إلى المقهى نفسه، يأتي رجب في تنويعات على نفس موديل بذته مدعياً نفس الأهمية والخطورة، يفض الظرف ويتفقد الأوراق، ثم يُخرج المبلغ المالي الذي لا يزيد مهما زاد المطلوب من أبي.

***

في مكمني بالشرفة جلست أدون كل هذا، تتسرب رائحة البن المحمص إلى أنفي قادمة من محمصة البن عند الزاوية، الرفاق يقسمون فريقين للعب الكرة ويصيحون عليَّ كي أنضم لهم فأشب برأسي عن سور الشرفة الحديدي أخبرهم أن ينتظروا أتحجج بوقت الطعام، الشيخ علي يتحرك بمشيته الوئيدة كقطار يقلع من المحطة وعينيه الثعلبيتين تتطوف بجنابات الطريق و تمسح أوجه الناس بتفقد العسس يتبع كل خطوة يخطوها بتوزيع السلام المكتمل الأركان الشرعية على كل عابر وقاعد وحجر وحيوان وسيارة، أرى أبي قادمًا ليعترض الشيخ طريقه تحت شرفتنا يسلم عليه وهو يعبث بمسبحته الخشبية بحركة لا تتوقف ويستغرق في حديث وأبي ينصت بتململ يتمنى خلاص، أصغى السمع

فألتقـط اسـمي يُنطـق عـلى لسـان الشـيخ، أطـل أكـثر حـتى أكاد أسـقط عـلى رأسـهما يرنـو إليَّ الشـيخ عـلى وهـو يعيـد كلامـه بصـوت أعـلى مداعبًـا لحيتـه الشـهباء المحنـاة.

- أقـول لأبيـك يـا عمـر أن الأوان قـد آن ليحـضرك للمسـجد كي تحفـظ كتـاب الله.

- إن شـاء الله ..أجابـه أبي ثـم يتركـه ليصعـد الـدرج، يمـر الشـيخ عـلي بالمقهـى فيعبـس ويسـتغفر بصـوت مسـموع، يقابلـه عاطـف القـرش مداعبًـا إيـاه فيزجـره الشـيخ ويحـث المـشي مبتعـدا فيتبعـه عاطـف بمقولتـه الأزليـة الـتي تحتمل كل تفسـير حسـب الموقـف.

- يا عيني على اللي حب ولا طالشي.

صبـاح كمـا هـي في شرفتهـا تطعـم زوجـاً مـن العصافـير بقفـص بميوعـة وطفليهـا يلعبـان، صبـاح تعطـي أي فعـل تقـوم بـه طعمًـا ورائحـة وأبعـاداً مـن الإغـواء حـتى ولـو كان إطعـام عصفوريـن.

يدخـل أبي يحيـني بصـوت معلـن عـن سـعادته حـتى أنـه احتضنـني وضحـك عـلى دعابـة ألقتهـا أمـي فتعجبنـا أنـا

وهي، سألته ونحن نأكل عن معنى العبارة التي يتلفظ بها عاطف القرش كل لحظة كأنه جرس تنبيه أو صياح ديك فجرا فقال - يا عيني على اللي حب ولا طالشي- يتبعها بابتسامة عميقة ويخبرني أن عاطف يقولها وهو يقلب جمرات الفحم أو يحضر مشروباً لزبون أو أثناء تناوله الطعام وهو في كل مرة يتنظر إلى شرفة هيام السكري التي تطل على شجرة السرو الشامخة عند مدخل الشارع، يمارس عمله في المقهى منذ إحدى عشر عاما، يومه يبدأ مع الفجر وينتهي في الهزيع الأول لليل حتى ورديته تتعدى الستة عشر ساعة فغلب أقرانه في المهنة بالمثابرة ونال حظوة عند عبد اللطيف الورداني صاحب المقهى وملحقاته كشريك في معظم حوانيت الشارع، محل الفول والبقالة وشريك سري لميخائيل في دكان الخمور المتواري بين المقهى والبقالة، عاطف القرش تجاوز ماهيته كقهوجي بين الناس إلى أسطورة حية تتداول كحكايات السيرة الهلالية، لا يعرف أحد توقيت نزوله إلى المدينة نازحا من أطراف الصعيد، تصالحوا مع وجوده كمسلمات القدر كأنه جزءاً من قراميد البيوت، أو أديم الأرض أو خرج من جذور الشجرة المباركة التي تسد

مدخل الشارع الجنوبي أمام السيارات. حتى محاولات موظفي الحي في إزالتها كلما رغبوا في فتح مدخل الشارع أمام اعتراض و تجمهر الناس تارة وتنتهي القصة بدفع رشوة معتبرة من الورداني الذي يعتبرها إرثاً عن جدوده والعالمين ببواطن الأمور يقولون أن الورداني نفسه يحافظ عليها ؛ لأن عرافة أخبرت أمه أن عمر ابنها مربوط بوجود الشجرة .

عاطف يتحرك بخفة وشهامة من يوم أن أتى إلى شارعنا حتى أحبه الناس ووثقوا به، يقف يداعب شاربه يشعل لفافة تبغ يمازح الزبائن يقضي حاجة لمحتاج من الجيران وكل ليلة يبيت في مخزن المقهى، ثم يتجسد وسط الشارع مع أول ضوء للفجر وصيحته تسبقه، يقال أنه أتى من الصعيد فراراً من ثأر وعندما هبط محطة مصر وقف يتأمل الناس ويمشي بلا وجهة حتى وقعت عينه على صبية فاتنة تناهز الخامسة عشر من عمرها، صرعه الهوى مع أول التقاء بعينيها فهام بها ومشي وراءها حتى موقع بيتها في شارعنا، بعد أيام من الطواف والعودة إلى الشارع سمح له الورداني بالعمل

في المقهى ولا أحد يعلم السبب الذي دفع متشكك كالورداني إلى هذا الفعل، لم يهتم بقلة الرزق بل كل ما كان يشغله أن يطل كل يوم على وجه محبوبته حتى تشج في يوم وطلب من ولي نعمته أن يتوسط له ليتزوج هيام، وبالفعل ذهب الورداني و عندما عاد أخبره برفضها له، ليخبره عاطف الذي تقبل الرفض وضياع أمله بجلد عجيب أنه يكفيه أن يراها فقط، ظل يراها كل يوم من موضعه طوال إحدى عشر عامًا حتى تزوجت من خليجي وعادت معه إلى بلده، يشغل نفسه بعمله وينوح كغراب البين وهو يرنو إلى شرفتها، ياعين على اللي حب ولا طالشي، حتى أتى يوم أن عادت في أجازة فرآها وعرف أنها طلقت من زوجها الخليجي فتأهب لإعادة الطلب حتى حدث الزلزال ولقت هيام السكري حتفها عندما انهار بها سلم البيت القديم، وهي تفر وقت الهزة ليتبقى له النداء كتعزية ويقيم من ذكراها نداءً كثيفاً منغمرًا مستمرًا كأنه يزكي جذوة نار الذكرى .

***

أخبرني أبي القصة بطريقته كأنه يخط قصة ملحمية على أوراقه، طلب من أمي أن تفرغ من مهامها بالمطبخ وتنضم إلينا فعنده خبرًا مهمًا.

- أنا أريد أن أخبركما بخبر سعيد، ذلك الرجل الذي يستخدمني رجب عويس الكاتب الشهير، الذي كنت أبيع له مقالاتي بثمن بخس على وعد منه أن يعطيني فرصتي وها هي قد أتت، عويس طلب مني أن أقوم بالعمل على كتابة مسرحية، أو حتى أنقح إحدى النصوص المكتوبة المتكدسة في الداخل، وسوف يقوم بتبنيها وتقديمها على مسرح الجمهورية مع مخرج كبير لم يفصح عن اسمه لي ووعدني أن يكون اسمي هذه المرة على عملي هذا غير المبلغ المحترم الذي سوف أتقاضاه، أردت أن أبشركما بأن وقت معاناتنا في هذا الجحر قد قرب على الانتهاء وحياتنا ستتحسن.

تذوقنا خيط الوعود الوردية على طاولة الغداء منه لأول مرة ولأخر مرة في تلك الظهيرة تكفلت أمي بمجهود مضاعف طوال الأيام التالية لتلبية كل متطلباته، هو عف النوم إلا سويعات وعف عن الخروج واعتكف في

غرفتـه يكتـب طـوال الوقـت، فقـط يخـرج ليعـد القهـوة أو الشـاي لنفسـه أو يأمـرني أن أذهـب لأبتـاع لـه علبـة تبـغ.

أمـي لا تملـك ذكاءً برّاقـاً أو حـتى خبـث أنثـوي كل مـا يميزهـا أكـبر مـن الـذكاء ألا وهـو مـا تفيـض بـه مـن عطـف ومسـوؤلية والـتزام دؤوب تجاهنـا وصـبر لا ينقطـع حبلـه، هـي لا تفقـه مـا يفعلـه زوجهـا حقـا ولا فهمـت معـنى أن يلـتزم إنسـاناً بكتابـة أو فعـلاً لا يجـيء منـه توفـير الـرزق، لكنهـا وقفـت جـواره حـتى يحقـق أي شئ حـتى ولـو كان اسـتقرارًا نفسـياً.

تلـك الأيـام داومـت جارتنـا (صبـاح) عـلى زيـارة أمـي لمسـاعدتها في التطريـز الـذي أمتهنتـه جـوار وظيفتهـا لتزيـد دخلنـا قليـلا، كانـت تـأتي بعـد أذان المغـرب إلى منزلنـا بصحبـة طفليهـا الّلذيـن يصغـراني، أولهـم بعـام واحـد وثلاثـة أعـوام للآخـر، تجلـس صبـاح جـوار النافـذة أمـام أمـي عـلى أريكتنـا الأسـطنبولي العاليـة تطـرز وتتكلـم وأمـي تصنـع القهـوة، أبي في غرفتـه يكتـب وأنـا كانـت وظيفـتي أن ألهـو الطفلـين باللعـب الصامـت عـلى أرضيـة الغرفـة حـتى لا يزعجـان أبي بصخبهمـا.

أجلس معهما على سجادتنا نلعب بالمكعبات الملونة وأنا عابس الوجه لشعوري أني أكبر سنًا من هذه الألعاب، أسترق السمع إلى الأحاديث النسوية من الامرأتين، صباح تحكي عن زواجها و كيف أن الزوج بعد شهر من زواجهما رحل للعمل في السعودية وتركها حبلى وبعد عامين عاد في أجازة شهر، ثم رحل وتركها حبلى، ثم غاب أربعة أعوام حتى الآن وهذا ما دفعها أن تفكر في الطلاق مما جعله يتصل بها كل أسبوع حتى يهدئ من روعها ويطمئنها على قرب عودته، أسمعها تهمس لأمي:

- اشتقت له أولا، ولكن الكارثة يا أم عمر أني صرت أشتاق لأي رجل .

أمي تتهامس معاها في كلام عن الحرام والحلال والصبر، كل دقيقة أطل من موضعي أسرق نظرة إليها، إلي وجهها وبشرتها البيضاء وشعرها الأسود المنسدل كستائر وإلى ساقها المتدلية طليقة عن الأريكة تحركها وتمرجحها فترسم قوس قزح يطغى فيه لون كعبها الوردي على الألوان، تتقلص وتتفرد ربلة ساقها فتبدو كقالب من الزبد السائل.

ليلتها بعد أن رحلت ودخلت إلى سريري، غفوت سريعًا على غير عادتي فشاهدتها في حلم لا يغيب عن ذاكرتي، شاهدتها تدخل عليَّ غرفتي وتجلس جواري، ثم تضع شفتيها على شفتاي وتقبلني فأسكر كأني أرشف أول رشفة من دن خمر، تأخذ كفي لتريحهما على ثدييها، حلمتاها تتمددا تحت أصابعي كعين البقرة، ويتمدد سمارهما كغيوم تحجب القمر الساطع فتنتصبا كي أرتعش، تمد يدها لتعتصر ذكري فأئن تحت وطأة خروج أنهار الحليب من صلبي ثم أستيقظ.

أفتح عيني فتغرق في ظلام الغرفة مشوش البال متعرق غارق في بلل، أظن أني عدت إلى التبول أثناء النوم كابن عام، أمد كفي أتحسس سروالي فتغرق يدي في سائل لزج، كان المني يغرقني لأول مرة، ليلتها علمت أني صرت رجلاً.

***

ـ٦ـ

كي تصبح رجلاً في شوارعنا عليك أن تتخطى عتبات وتصعد درجات سلم من حضيض الطفولة، عليك أن تقتل براءتك المغلفة بالدهشة الأولى، أولاً عليك أن تتخطى الحاجز البايولوجي، وثانيًا أن تكون حاضرًا في الذاكرة الجغرافية للشارع.

منغلق كنت رغم صداقتي مع التوأم ولعبي الكرة مع أترابي الذي نقص وقته وتقلص في آخر شهور بسبب هيامي الجديد بالتدوين والتنصت والمراقبة، في إحدى صلوات الجمع المتعاقبات التي لم أكتشفها إلا تلك الأيام لأني لم أرَ أبي يصلي يومًا أو يأخذني إليها فكانت

عبارة عن أصوات أشخاص تزعق في مايكروفنات شارعنا في تلك الفترة أخبرني التوأم منذران إياي و هما راسمان الجدية على محياهما المتطابق في نبرة متناغمة واحدة أنه لابد لي أن أواظب على الصلاة خصوصًا الجمعة؛ لأن من يفوته جمعتين متتابعتين بلا صلاة قد خرج من الملة وحق عليَّ عقاب المرتد كما أخبرهما أبوهما، وقاما بالمرور عليَّ واصطحابي كل جمعة قبل موعد الصلاة وصعود الخطيب إلى المنبر حتى يُحسب لنا كامل الثواب.

في إحدى الجمع الشيخ تحدث بصوت متهدج عن حرمانية التنصت واستراق السمع ؛ لأن هذا فعل وصفه الله بأنه فعل الشياطين فعاقبهم بإرسال رجوم من شهب عليهم، تلك اللحظة شعرت بذنب فعلتي أو هواياتي التي انشغلت بها وكأن الشيخ يوجه سبابة الاتهام إليَّ وسط صفوف المصليين الذين بدوا وكأنهم يحضرون محكامتي.

ليلة ذاك اليوم غفوت في سريري كي أستيقظ صارخا بعد أن علقت في شباك الكوابيس، كنت فيها أحمر اللون

وسط حفرة نارية يتساقط شهاب ناري على رأسي التي نبت بها قرنين.

التوأم صديقي الأثيرين فتحا عيني على كثيرٍ من الأمور، أحمد ومحمد كانا لطيفان ومندفعان ومشاكسان، فعل واحد وردود أفعال واحدة، وحركة واحدة كصورة في مرآة، تقابلنا في ظهيرة مميزة ونحن على اتفاقنا أن نبتاع المثلجات قبل خوض غمار مباراة مصيرية مع فريق الحي المجاور أو كما سماهما التوأم (فريق الأشباح)، جلسنا نأكل الثلج الملون من أقماع البسكوت على رصيف الشارع أمام المقهي وعاطف القرش يمر بنا ليداعبنا و يشجعنا على تحقيق الفوز.

- لا تكونوا خائبين.. سمعة الشارع في أعناقكم - ثم أتبعها كعادته - يا عيني على الى حب ولا طالشي.

أستمع إلى صيحته ضاحكا لأني شعرت أني الوحيد العالم بباطن مقولته وقصتها وسببها، أحمد يخرج من كيس بعض الروايات الجديدة يوزعها بيننا، ألمح أمام المسجد ثلة من الملتحين أو كما يُدعون هنا بالسُّنيةِ بجلابيبهم القصيرة حد الضحك وذقونهم المرسلة حد

القشـعريرة وأغطيـة روؤسـهم المنسـدلة كأبـراج حمـام متجـاورات، يمشـون متجهـين إلى مخـرج الشـارع الجنـوبي يتصدرهـم خالـد منصـور حشيشـة كأنـه حـادي لقافلـة جمـال يصيـح :

- لله وجهتنا.

فيكـررون بعـده النـداء، يلكـزني محمـد ليخـبرني أنـه سـمع أبـاه يتحـدث عـن هـؤلاء الجماعـة الـتي ظهـرت مـن عـدم في شـارعنا، وقـال : إنهـم جحافـل بلطجيـة عصابـة المخـدرات وعاطلـين تـاب الله عليهـم وكل فـترة يذهبـون في سـبيل الله، وقـال كلمـة (الاعتـكاف)، عندمـا دنـوا مـن مدخـل المقهـى أوقفهـم قائدهـم بإشـارة، ثـم اتّجـه إلى محـل الخمـور المتـواري بـين المقهـى ومحـل البقالـة ثـم صـاح في ميخائيـل:

- سـنعطيك مهلـة أسـبوع يـا هالـك لتغلـق هـذا الماخـور وترحـل بـلا رجعة.

****

ثـم ختـم كلامـه بـأن التقـط حجـرًا مـن الأرض وألقـاه ليهشـم وجهـة المحـل الزجاجيـة أمـام عـواء ميخائيـل المتمـترس تحـت مكتبـه الصغـير بقلـب المحـل، وزع خالـد نظراتـه شزرا عـلى الوجـوه، ثـم أمـر رجالـه أن تبعـوه وذهبـوا إلى حـال سـبيلهم، تجمهـر الأهـالي عـلى رأسـهم الـورداني الكبـير وابنـه وأتى يهـرول مـن داخـل المقهـى عاطـف القـرش وهـو ممسـكا بعصـا مرعبـة الشـكل، خـرج ميخائيـل متشـجعاً بالجمـع فنصحـه الـورداني أن يذهـب هـو وبعـض النـاس لتقديـم بـلاغ تعـدي في نقطـة الشرطـة.

توقفـت سـيارة مايكروبـاص أمـام المقهـى ليـنزل منهـا مسرعـا (عـلي اليابـاني) يبتسـم ببلاهـة موجهًـا كلامـه إلى ميخائيـل :

- من فعل هذا يا عم ميخائيل ؟ الله يقل مزاج أهله.

أخـبروه النـاس بالحادثـة وأن الشـيخ ومعـه جحافـل السـنية هـددوا الكهـل المذعـور، أخـرج شـخرة عميقـة ثـم بصـق وهـو يسـحب كـرسي مـن المقهـى ليجلـس

- خالـد حشيشـة صـار شـيخا ..والله زمـن العجائـب .. أحـضر لي حجـر معسـل و شـاي خمسـينة يـا الـلي حـب ولا طالـشي.

ذهـب الـكل إلى حـال سـبيله وأنـا أنظـر إلى وجـه (عـلي) المنحـوت وشـعره الأملـس المنسـدل وهـو يسـحب أنفاسًـا مـن الشيشـة ويدنـدن بصـوت مـشروخ مـع أغنيـة حسـن الأسـمر القادمـة مـن مذيـاع المقهـى.

- الله عليـك يـا عـم حسـن، هـل تعلـم يـا عاطـف إنـه مـن العباسـية وكان بيتـه مجـاور لبيـت جـدي الله يرحمـه.

يضحـك ويهـتز ويتبـع حديثـه الخزعبـلي الشـخصي الغـير موجـه لأحـد، بـل موجـه إلى الجميـع إلى الفـراغ أو إلى المجرة.

- خالـد بـن منصـور حشيشـة أصبـح شـيخاً - يـضرب كفـاً بكـف- بعـد أن أخـذ أبـاه مؤبـداً تـاب -يضحـك- العجيـب أنـه كان نصّابـاً وتاجـر مخـدرات غشـاش بـاع لي حشـيش مخلـوط لبـان دكـر وحنـاء ابـن الكلب..سـبحانه تاجـر مخـدرات نصـف لبـة أصبـح شـيخاً.

- انتهينا يا ياباني . قالها الورداني بصوت جهوري

الياباني لقبه العجيب، أتذكر بعد سنوات كنت أتعثر وسط تزاحم الخلائق مغالبًا اندفاعهم العشوائي لحيازة أفضلية الوقوف على رصيف موقف سيارات الأجرة، «الفولكس فاجن» البيضاء التي انقرضت من الكوكب وتكاثرت بمعجزة ما في حيّنا، تقهقرت رغم أنفي وحفظا لماء الوجه وسط حمى الركاب، أتاني صوته مضمخ بحشرجة التبغ الرديئ مع لكنة الشارع الغارقة في سب الدين اليومي.

- يا دكتور يا دكتور، تعال اركب بجواري.

هنا ميزت وجهه المألوف، تقدمت متتبعًا ابتسامته بين الجمع، فتح لي باب السيارة الأمامي و هو مهموم بتنظيف المقعد الجلدي المتآكل بقماشة زيتية أكثر قذارة، لم أهتم وقفزت جواره في الحال، هنا أشاح لراكب مندفع يروم المقعد الشاغر جانبي زاعقا فيه بنبرة حازمة اعتادها للزجر:

- قدام خلاص يا فندي.

نظرت إليه ممتنا لشاهمته فأعطاني لفافة تبغ ملتوية مبللة ببقايا العرق.

- عيب يا دكتور، نحن جيران لا شكر بين الأهل، لو أمرت والله أطلع بك وحيدًا .

تأملت في وجهه أكثر علامات وأخاديد الزمن لها بصمتها على سمته الذي كان سبب في ذياع صيته.

اسمه (علي) وشهرته الياباني أو (علي شان) تيمناً بالممثل الصيني الشهير جاكي شان ؛ لأنه حرفيا يملك وجهه، وجه آسيوي أشبه بالصينين لكن في أزقة القاهرة كل ما هو أسيوي هو ياباني بالضرورة.

كان الابن البكري للحاج (سيد الوكيل) النازح إلى حيّنا من تخوم العباسية، حكايته ميلاده نفسها ذائعة الصيت تكبر مع كثرة تنقلها بين ألسنة اللكائين للسِّير، هو نفسه أضاف لها من التفاصيل لتليق ببطل ملحمي آخر سيخلد يومًا في السِّير الشعبية لينال مكانته كشخص مرهوب الجانب يستحق سمعته بين ذئاب وضباع وطيور جارحة في حوض أسماك القرش .. حيِّنا

قالـوا إنـه خـرج إلى العالـم بعـد حرمـان والديـه مـن الإنجـاب لمـدة طويلـة بعـد أن اقـترن سـيد الوكيـل بابنـة خالـه دخـل عليهـا في ليلـة قائظـة، عاشـا سـويًا بـلا أمـل في الإنجـاب ؛ ممـا جعـل الرجـل يدفـن همـه في عملـه وجلسـات الحشـيش أو أسـبوعيًا في أحضـان (نبيلـة العايقـة) بشـقتها الـتي تديرهـا للدعـارة بحـي عابديـن.

سـمعت أيضًـا أن بعـد عـدة أعـوام تبـدَّل الحـال واختفى مـع زوجتـه مـن العباسـية بعـد أن فتـح لـه كـنز مرصـود منـذ أيـام المماليـك كان مدفونـاً تحـت جـدار البيـت الـشرقي، ليظهـر بعدهـا في شـارعنا داخـل سـيارة فارهـة وتبـدي عـلى وجهـه أثـر نعمـة ويشـار إليـه بصاحـب العمـارة الخـضراء المطلـة عـلى الميـدان عنـد نهايـة الشـارع مـن الشـمال، بعد أن اسـتقر لـه المقـام بعـدة أعـوام اختفـت زوجتـه لشـهور وعندمـا عـادت كانـت تحمـل طفـلاً عـلى ذراعيهـا فانطلقـت الزغاريـد المهنئـة بقـدوم الولـد، قـال أن زوجتـه كانـت طـوال فـترة الحمـل في كنـف أهلهـا ولمـا ظهـر الولد الآسـيوي انتـشر القيـل و القـال بـين قائـل أنـه وجـد الرضيـع فتبنـاه

وبين القائل أنه ابن سفاح أنجبه من علاقة سرية ربطته بآسيوية تعمل عند ولي نعمته رجل الأعمال الكبير .

مات الرجل وترك لعلي البيت وديون وحجز على كل التركة وما تبقى لعلي إلا غرفة حقيرة فوق سطح العمارة الخضراء التي تطل على الميدان برسومات الكعبة وعبارة حج مبرور المرسومة بخط سيئ على واجهتها وكنت أتلعثم في قراءتها .

تزوج علي مرة واحدة في حياة أبيه وظل مع زوجه خمسة أعوام ولم ينجب حتى طلبت المرأة منه أن يذهبا إلى الطبيب وخرجت التحاليل لتعلن أن علي عقيم ، طلبت امرأته منه الطلاق فطلقها كأنه يتخلص من ذنب، أتذكر امرأته في صورة ضبابية وهي تلقي القمامة كل صباح في عرض الشارع.

علي صاحب سمعة معروفة في المعارك التي تدور بروتينية بين البلطجية، ما يميزه أنه ذو صوت مدوي وقبيح اللسان ولا يخشى أحدا رغم جسده النحيل، رأيته مرة يتعارك مع منصور حشيشة ليكسر كرسي على رأسه ؛ لأنه نعته بالجعجاج.

أقــوم مــع التــوأم وبقيــة الرفــاق لنســتقبل الفريــق المنافــس، تتطلــق المبــاراة وســط نهــر الطريــق، في إحــدى المراوغــات الناجحــة مــني لفــتى ضخــم مــررت منــه فدفعــني بعنــف متعمــداً لأســقط وتجــرح ســاقي جرحــاً بالغــاً، يشــتبك التــوأم معــه ومــع رفاقــه وتنتهــي القصــة باحتســاب ضربــة جــزاء لي أتصــدى لهــا ونفــوز، بعــد المبــاراة اقــترب مــني الفــتى وهــو يحرقــني بنظراتــه وقــال وهــو يفتــح مطــواة :

- سأراك، أحمد لحمة لا ينسى.

بعدهــا أخــبرت التــوأم عمــا جــرى فأجبــاني بــسرد مــا يعلمانــه عنــه وعــن أهلــه الأشــقياء، ونصحــاني أن أتوخــى الحــذر وألا أهــزم لــو تحــرش بي حــتى لا أفقــد ســمعتي و رجولــتي.

***

رجولــتي البايولوجيــة الــتي تعلمــت عنهــا منهمــا أيضــا، ســألني أحمــد هــل أمــارس العــادة السريــة ؟؟ أخــبره أني لا أعلــم معــنى العــادة حــتى أمارســها ليخــبرني بــكل شئ فأصدم ويتبــع أخــوه الحديــث بنصيحــة .

- مرة كل يوم ولا تفرط ياعمر حتى لا تصاب بالعمى.

كانـت في البـدء مرتبطـة بصبيحـة كل أربعـاء، كل يـوم أربعـاء أقـف خلـف خصـاص النافـذة أنتظـر صبـاح لأشـاهدها، وهـي تقـوم بنـشر غسـيلها الأسـبوعي، جـدول زمـني لا ينكـسر كـدورة القمـر حـول الأرض، نامـوس لـم يختـل .

أتابعهـا وأحـك نفـسي حـتى أنفجر، أغـوص في المشـاهدة حـتى جفـاف الحلـق وتسـلخ العروق.

***

-٧-

أينما ذهبت يتبعني شبح (أحمد لحمة) ،عند كل ركن وتحت كل حجر وداخل كل شق وفي دفتري وفي عيون القطط التي تمؤ وتحت ثوب صباح الشفيف، كيف يتحول اللقب التالي للاسم إلى المحرك، في مدينتنا اللقب كان مستعلن وحاضر كألقاب النبالة البائدة له سطوة و امتداد وطغيان فعال.

في أوساط البلطجية وأبناء الشوارع والأشقياء وسائقي الأجرة وتجار المخدرات وشذاذ الآفاق والعاطلين وأرباب الحرف والسوابق لابد من تواجد اللقب الذي يكون في معظم الوقت معبرا عن عاهة مميزة لصاحبه أو صفة

شكلية نادرة كالياباني وبربش والأكتع، وأحيانا يعبر عن صفة انفعالية لصاحبه كغضب وعصبي أو اسم حيوان كقط وفأر وتمساح، أو تصل إلى أبسط النعوت الوظيفية كحشيشة.

كنت أتجنب المرور بشارعه، تعلمت التلفت مع كل خطوة، أتوارى كابن أوي خلف تعرجات الجدران، الخوف كان دخاناً أسود يجول في رئة دُنيتي الضيقة.

(أحمد لحمة) و أخوته لهم صيت اللقب وبريق نصل الأجرام، نال اللقب وراثة عن أبيه الجزار، مشهور عنه الشر كنت أمر بدكانه عندما كنت أذهب إلى السوق الكبير أراه يجلس يرعى الذباب، ويدخن الشيشة أمام باب دكانه الذي تتجنبه الناس لأسباب عدة منها أن صاحبه سليط اللسان وبضاعته من لحوم سيئة الطعم وشبه فاسدة.

الإنسان يولد ثم يرث اسم عائلته وسمعتها وعقدها ومع مرور زمن بسيط من المحاكاة و الخبرة يثقل كاهله بأحمال جديدة من مختلف أنواع الإرهاب، الإنسان طور خوفه إلى خوف مرضي من أي شئ تحت السماء، يصارع

رهابـه طـوال الوقـت أم أن ينتـصر أو تبتلعـه مخاوفـه لتتحكـم في مسـاره وتصبـح الفاعـل الحقيقـي، بـلا إرادة حـرة يقـاد إلى كل فعـل ورد فعـل، يظـن أنـه نابـع مـن داخلـه، ويملـك زمامـه، لكنـه مـع التجـرد يتكشـف لـه أن مخاوفـه وعقـده هـي علامـة الطريـق الـتي أرشـدته إلى مـا جنـت يـداه.

أطالـع أسـماء في مجلـد يتحـدث عـن الأمـراض النفسـية وجدتـه في مكتبـة أبي فبـدت كأسـماء شـياطين في كتـب السـحر بالقـرون الوسـطى، الإنسـان مـع الحداثـة لـم يطـور ويطوع الآلات و يخضـع الطبيعـة ويغـزو الفضـاء، بـل طـور مـع كل انتصاراتـه العلميـة كل أنـواع الرهـاب مـن كل شئ.

التطـور ليـس تطـوراً نوعيـاً، بـل تطـوراً رهابيـاً يبتلـع كل شئ داخـل ثقـب الخـوف المبهـم الأسـود مـن البدائيـة قبـل زمـن الحضـارة حـتى الخـوف مـن الخـوف نفسـه، الخـوف مـن العناكـب والثعابـين و المرتفعـات ومـن الأماكـن المزدحمـة والخاليـة والمغلقـة والمفتوحـة والخـوف مـن الأضـداد والخـوف مـن المتشـابهات والخـوف مـن الـكلاب والرعـد والـبرق ومـن الطائـرات ومـن المـرض ومـن المـرضى والخـوف مـن التحـدث مـع الغربـاء والأقربـين والتحـدث

أمـام جمهـور والخـوف مـن الوحـدة والخـوف مـن الرفقـة والخـوف مـن الفشـل والنجـاح والخـوف مـن الحقـن والنـاس والـدم و الظـلام والحـب والحـشرات والخـوف مـن المراقبـة والأعضـاء الجنسـية وممارسـة الجنـس والاجتماعـات و رهـاب المرايـا والمـشي والوقـوف والنـوم والشـمس والشـعر المفـرود و أفـرازات الجسـم واللمـس والخـوف مـن الثلاجـة والأدوات المنزليـة الخـوف مـن تغـير العـادات و رهـاب الغابـات والخـوف مـن اتخـاذ القـرارات والمـاء ونـزول السـلم أو صعـوده وابتـلاع الطعـام والخـوف مـن شر غـير محـدد المعالـم و رهـاب المسـتقبل والخـوف مـن الفنـاء.

رهـابي مـن متنمـري فـاق اهتمامـه هـو بي، كنـت أبحـث عنـه لأتجنبـه، سـألت التـوأم عليـه مـرارًا وتكـرارًا فوعـداني مـع إلحاحـي أن يتقصيـا خـبره ونصحـاني ألا أفـارق الشـارع وحيـداً.

***

أمسـك القلـم وأخـط عـلى صفحـات دفـتري مـا أرهبـه، أتخلـص منـه للأبـد وأتركـه حبيسًـا بـين دفـتي الدفـتر، أعـود إلى مرجـع أبي لأجـد مسـمى لمخـاوفي فـلا أجـد لـه

وصفًا لاتيني دقيق لتبدوا كأنها شديدة الخصوصية أو من مفرزات ذهني، أخاف من نبتة الخرشوف ومشروب الجوافة بالحليب و رهاب مستفحل تجاه الحمام الزاجل وصوته، ورهاب ثلاثي يولد إرهاب من رقم ثلاثة ومضاعفاته.، متى وكيف نلت حظي من الخوف؟

في سن أحدث أظن كنت في الثالثة من عمري كنا أنا وأمي في زيارة لقريبة لأمي، كانت امرأة بدينة فيلية التكوين كانت تجلس على أريكة تكاد أن تتهاوى تحت ثقلها، قبلتني لتغرق وجهي بلعابها فتعلق رائحتها بي طول السنوات خليط من لبن متخثر وحلبة وجوافة، طلبت من خادمتها أن تحضر لي شيئاً أشربه أنا وأمي و زادت في طلب صحن خرشوف مسلوق مغرق بالليمون، ناولتني الخادمة كوباً تترقرق حبات الماء على زجاجه الخارجي وداخله سائر لزج أبيض مصفر أو أصفر مبيض، في نفس الصينية طبق عليه قطع الخرشوف، يجذب سمعي صوت هديل حمائم قادم من الشرفة، أرشف رشفة من السائل وأنا ألوك قطعة من الخرشوف لأول مرة في حياتي، قفزت حمامة على حجري فأصرخ من

هـول المفاجـأة ،أصرخ سـقط الكـوب مـني عـلى الأرض أراه بسرعـة بطيئـة يتهشـم ويتناثـر، تسـتقر شـظية منـه في ربلـة سـاق المـرأة الفيليـة فينبجـس دم غزيـر فتـصرخ وتلعـن، أبـكي ،عندمـا عدنـا إلى المـنزل ليلتهـا أصبـت بنزلـة معويـة وحمى ولـم ينقطـع القـيئ حـتى الصبـاح مـع أول جرعـة مـن محقـن الـدواء.

مـع الوقـت كنـت أتجنـب الثـلاثي، أخشـاه أكـثر مـن كلاب الخرابـة المسـعورة، في أواخـر سـبتمبر تغـرق الأسـواق الجوافـة كي أصـاب بهـلاوس مـع رائحتهـا المبعـثرة في هـواء الخريـف وهـذا مـا كرّهـني أكـثر في المدرسـة لارتبـاط شرطـي بموسـم الثمـرة الملعونـة.

دخلـت إلى المدرسـة في بدايـة مرحلـة جديـدة، انتهـى طابـور الصبـاح يتعـثر الطـلاب بـين شـد وجـذب أمـام محـاولات الأسـاتذة ممارسـة سـلطتهم في الحفـاظ عـلى اتسـاق الطوابـير، أنـا في ذاك الزمـن الضبـابي أقـف عنـد مؤخـرة طابـور صفـي محـاط بالغبـار والضوضـاء الـتي تشـبه مؤثـرات مفتعلـة سـينمائية تصـور سـاحة معركـة وبـرد ديسـمبر المفجـع، كنـت قـد خلعـت سـترتي الصوفيـة الزرقاء

الـتي يجـب أن تكـون رماديـة اللـون حسـب التعليمـات المخصصـة للـون الـزي المـدرسي كتقليـد فـاشي بجـدارة، أو كمـا وصفـه «ميشـيل فوكـو» بتوزيـع السـلطة عـلى جسـد المجتمـع يبـدأ بالمدرسـة مراقبـة وعقـاب حـتى تـرى الأجيـال طبيعـة السـلطة وتميزهـا.

أنـا الوحيـد وسـط مئـات التلاميـذ الرماديـين الـذي يتشـح بالزرقـة، والـداي لـم يحبـذا أي غضاضـة في ذلك رغـم عودتي كثـيرا مـن الأحايـين معاقبـا بالـضرب أو التذنيـب لانتهـاكي لون القطيـع المسـنون عـلى أتباعـه في ألـواح المدرسـة المقدسـة العـشرة، لـم يهتمـا لا لفقرهمـا، بـل لرؤيتهمـا عـدم جـدوى حصـولي عـلى نفـس اللـون الموحـد مـن الأسـاس، السـترة الزرقـاء هـي سـترة قديمـة لأبي أو كمـا بـررت أمـي بحمـاس .

-السـترة فضفاضـة أي نعـم، لكنهـا سـتقيك الـبرد لشـتاءات عديـدات قادمـات.

مـا كان مـني - كحـل يـرضي جميـع الأطـراف - إلا أن أخلعهـا كل صبـاح قُبيـل الطابـور فـرارًا مـن تدقيـق المشرفين حمـاة الشـكل لا المضمـون ومـن نظـرات زمـلائي الشـيطانية السـاخرة مـن اتسـاع قيـاس السـترة عـلى جسـدي.

أخلعها ثم أدسها داخل حقيبتي، أعتدل واقفًا في مكاني بعنفوان مقاومًا قشعريرة الزمهرير الديسمبري بقميص أبيض قصير الأكمام وبعض من تمسكي بالحفاظ على ماء وجهي، اعتدت مع الوقت كل صباح نفس السؤال المكرر.

-ألست تشعر بالبرد يا فتى؟

أهز رأسي بالنفي مسلحًا بابتسامة سمجة باهتة ناظرًا أمامي متحاشيا نظرات المشرف أعد الدقائق العشرين حتى يأتي الفرج بانصراف الطابور إلى الفصول، أصعد متلمسًا بنظري حذاء من يسبقني حتى لا أدهسه بسبب التدافع البربري وقت صعود السلم، أسرح بخيالي إلى تخوم منطقتي الآمنة ومقعدي جوار النافذة المكسورة التي تطل على شجرة حور عجوز يتدلى من غصونها ثمرات طويلة خشبية مدببة على شكل قرون عجيبة، أخبراني التوأم وقت الفسحة عنها عندما يشق غلافها اليابس ويستخرج من داخلها بذورها، ثم تطحن وتتحول إلى مسحوق بودرة العفريت، وعندما ينثر المسحوق على جلد الضحية يشتعل الجلد وتنتشر حكة جهنمية

يزيـد اشـتعالها الغسـيل بالمـاء ولا يطفئهـا سـوى الغسـيل بالخـل.

****

أعـلى السـلم أقـف أنتظـر ككل يـوم ،أتخلـف لدقائـق عـن اللحـاق بالصـف السر كان اسـمه (عـادل) ،زميـل الصـف الـذي لـم يكـن صديـق لأحـد أو حـتى يتبـادل كلمـات مـع أحـد منـا، عـادل ضحيـة الإصابـة بشـلل الأطفـال، أقـف كل يـوم لدقائـق لأشـهد معجزتـه وهـو يتحـرك بعكازيـه الخشـبيين كدميـة فأغيـب في المشـهد.

دميـة ماريونـت بـلا خيـوط، فضـولي كان يدفعـني أن أتأكـد أنـه يتحـرك بـلا خيـوط لا تُـرى فشـاركت أفـكاري مـع التـوأم فأخـبرني أحمـد أنـه عـاد بأفـكاري وطرحهـا عـلى أبيـه فأخـبره.

-الله هـو مـن يحركـه كمـا يحـرك كل المخلوقـات بخيـوط لا يمكـن أن يراهـا إنسـان.

كنـت أنتظـره أعـلى السـلم أشـاهده كآخـر الصاعديـن، يرفـض دائمًـا أي مسـاعدة، يضـع طـرف عـكاز عـلى درجـة

السلم، ثم يدفع جسده إلى الأمام بالعكاز الآخر، أقف مشدوها من عنفوانه وعفاف نفسه رافضاً أي يد تمتد للمساعدة، بدنه يتشبع بالعرق وأنفاسه تسبقه بالصعود، رغم هذا كنت أحسده ؛ لأنه لا يتكلف عناء الوقوف في طابور الصباح وسُمح له بأن يتأخر أو أن يتغيب عن الحضور بسلاسة عجيبة تقارب السحر ولا يقع تحت طائلة عقاب من مدرس حتى الواجبات المنزلية كانت له مجرد خيار، والأنكى من ذلك أنه كانت له (تختة) وحده لا يشاركه أحد فيها كملك يجلس على عرشه.

عند آخر درجة سلم يقف وهو يحاول التقاط أنفاسه، ينظر لي بخبث مبتسماً ويقول :

-أتقدر أن تفعل مثلي؟

قالها ليتركني، لم أذق طعم النوم ليلتها وصورته لا تبارح مخيلتي ووقع عكازيه على السلم يطن في أذني حتى انبلج الصبح.

قبل موعد الطابور نفذت خطتي التي صغتها ليلا، تسللت وأحضرت مقعدًا ووضعته قريباً من مدخل السلم، ثم انتظرت الدقائق العشرين لتمر، كمنت في بئر السلم حتى انتهى الطلاب من الصعود تمامًا، ثم خرجت عندما لاح عادل بمشيته الميكانيكية اقتربت منه وأنا ألهث من الإثارة ولم أنطق فنظر لي نظرته الخبيثة كأنه فهم ما جال بخاطري كأنه يملك حسة تخاطر خارقة، تخلى عن عكازيه وناولهما لي وهو يستريح على المقعد ثم أشار لي أن أحاول.

تأبطت العكازين ثم حاولت التعود على توزيع وزني عليهما والمشي بواسطتهما، الأمر نظريا بدا لي يسير رغم إحساسي بأن طولهما لا يناسب طولي فهما أقصر، هنا أشار عادل إلى السلم مطالبًا إياي أن أبدأ التجربة، خطوات ثم حملت وزني على العكاز الأيمين متمايلا صوب أول درجة، دفعت جسدي باتجاه الصعود مائلا بحدة إلى الأمام، ذراعي يرتعدان ومنبت إبطاي يحترق وتمالكني دوار عصفور يتعلم استخدام أجنحته لأول مرة، أتحدى الألم وملوحة العرق الحارقة المتسربة إلى عينيي وسطوة

الجاذبيـة حـتى مـادت بي كل الخطـوات، أتذكـر مـذاق الـدم المنبجـس مـن شـق جبهـتي بعـد أن شـجت عنـد أول درجـة، لـم أبـكي لـم أقـاوم عـادل وهـو يسـحب العكازيـن مـن تحـتي وانتصابـه عليهمـا مقتربـا مـني وأنـا طريـح دامـي يمـد كفـه لي، امتننـت لـه محاولـة مسـاعدتي عـلى الوقـوف، لكنـه أتبـع كفـه بعبـارة لـم أنسـها يومًـا:

-هيا تنحي جانبا ،أنت تعيق صعودي .

آخـر اليـوم بعـد أن ضمـدت ممرضـة المدرسـة جرحـي وجـدت وقـت الخـروج، الدميـة الماريونـت ينظـر لي ضاحـكا بشـماتة فأشـحت بنظـري عنـه، وعند البـاب الخارجـي وجدت علكـة ملتصقـة بشـعري ولـم أعـرف مـن قـام بهـذه الفعلـة الشـنعاء، انضممـت أمـام المدرسـة للتـوأم المنهمـكان في أكل ثمرتـين مـن الـدوم الـذي تسـتخدم ثمرتـه القاسـية في لعـب الكـرة، أعطـاني محمـد ثمـرة لأكلهـا مـع روايـة جديـدة ومحمـد أخـبرني أن هلعـي مـن أحمـد لحمـة قـد انتهـى فقـد نـال عقابـاً لـن يخـرج منـه إلا بعـد عـدة سـنوات.

-لحمة وعصابته اختطفا طفلاً من هؤلاء الأطفال الذين يتسولون ويبيتون تحت الكوبري، ثم أخذوه إلى الخرابة ولاطوا به حتى نزف، بعد يومين هاجم الولد وعصابته أحمد لحمة وألقوه بالحجارة فأصيب، لكنه وسط المعركة لقي أحد الأولاد حتفه بعد أن هشم لحمة رأسه بحجر ،تم القبض عليه وأودع الإصلاحية.

تنسمت هواء الانعتاق من أكبر مخاوفي، أتى الانتقام من السماء رغم شعور ينتاب الضمير لعدم تعاطفي مع الضحية التي فادتني بطريقة غير مباشرة، الله له طرقه الخاصة في خلاصنا.

***

—٨—

خـلاصي مـن المدرسـة للأسـابيع أتى مـع إصابـتي بالحصبة،أمـي ارتعبـت لإصابـتي في سـن متقـدم وألقـت اللـوم عـلى نفسـها ؛ لأنهـا كانـت تخـاف عـليَّ حـتى سـن السـابعة مـن أن أختلـط بأحـد.

-يـا ليتـني تركتـه الحصبـة قبـل سـن الخامسـة أرحـم وطـأة مـن الإصابـة بهـا في سـن الثالثـة عـشر.

تعلمـت أن الحصبـة مـرض يصيـب الإنسـان مـرة واحـدة في العمـر ولا يعـود، قـوي فتـاك لكنـه يخـرج مـن الجسـم فيملـك مـن بعـد الحمـى المصـاب مناعـة حـتى نهايـة العمر.

ليت كل مصيبة في العالم تأتي و تذهب بلا عودة، لما كبرت و نضجت أيقنت بعد أن خبرت أن المصائب تترك ندوباً في الروح تذهب وتتلاشي مع ترك نعمة المناعة وتشوهات تشبه آثار الحروق على الجلد لاتزول.

أسابيع الحصبة كانت بالنسبة لي أسابع مريحة رائقة، أمي ترعاني باهتمام مضاعف تمثل في كل ما لذ وطاب ووضعت سريري جوار باب الشرفة حتى أأتنس بأصوات الشارع، أبي أيضا كان أرق فكان يحضر لي في وقت راحته من الكتابة كتب من مكتبته ليضعها جواري ،خبرت عوالم جديدة و أسماء لكُتَّاب جدد بالنسبة لي، العقاد، طه حسين ،المازني، يحيي حقي،يوسف إدريس و بالطبع مجلد أعمال محفوظ الكامل الذي جعلني أصاب بالهوس و أهيم بالرجل معلمي الأول.

***

التوأم منعتهما أمهما من زيارتي رغم أنهما أصيبا بالمرض صغارا خشية من عودة الإصابة عن جهل منها رغم ما أكده طبيب جار لنا بالحي أن من أصيب يوما بالحصبة لا يمكن أن يصاب مرة أخرى لكن الأم غلبها

التطير وخشية فكرة المرض في ذاتها حتى لو كان لا يسبب عدوى.

الشارع كما هو لا يتغير حتى جدَّت على يومه حادثة مفجعة، حريق الكنيسة التي تطل على السوق، الكنيسة التي تحمل اسم أحد القديسين موجود هنا قبل خلق الشارع و السوق و الميدان و قبل نزوح البشر لاستيطان الحي منذ قرنين من الزمان، السلام كان الحاكم حتى زمني عندما اشترت جمعية أنصار السنة قطعة أرض مقابلة للكنيسة، و قامت بناء مسجد ملحق به مستوصف طبي ومعهد ديني ،الكنيسة بعد دورة من التصريحات الحكومية نالت التصريح الأخير بترميم برجها الأثري وبالفعل تم إعادة ترميم جدرانه و دهانه فكانت الكارثة عندما تشدد و صرخ الشيخ أبو العلا المحلاوي في جموع المصلين في مايكروفون المسجد أن لا يصح أن يتطاول النصارى بالبناء هكذا و بعد أن اجتمع فيما يدعوه بمجلس الشورى بجماعته خرج على الناس بنتيجة الشورى ،على الناس التبرع لإحضار اللازم من مواد بناء حتى تقوم الجمعية بتعلية المئذنة فتطاول

البرج أو تزيد قليلا، المهندس المعماري الذي عُرض عليه المشروع المقدس رفض رفضًا قاطعًا بعد المعاينة وكان فحو اعتراضه أنه لا يمكن أن يتحمل أساس المسجد و مساحته ثقل و طول مئذنه تناهز الأربعين مترًا، نابذه يومها الشيخ المحلاوي في المايكروفون وألقاه بالكفر وعرّض به وبسمعته وطعنه في دينه وألب الناس عليه كي يغسل المهندس يده من الموضوع وهو يشهد الناس (اللهم قد بلغت) وينصرف تتبعه اللعنات.

تطوع أحد رجال الجمعية الذي يعمل كمقاول بناء في تنفيذ فكرة الشيخ أبو العلا و رغبته في نصرة دين الله والاستعلاء الإيماني بطول المئذنة وهو يقول ساخرًا إن الموضوع لا يحتاج مهندسًا

-ماذا يفعل المهندسون على أي حال يا مولانا.

***

بعد شهور من العمل طالت المئذنة حتى بدا منظر البناء في شذوذه عن نسب البناء الطبيعية كأنه أصبع متورم يشير إلى السماء، احتدمت الأمور أكثر عندما

أوعـز أحـد المسـيحين بعـد القـداس إلى كاهـن الكنيسـة بتعليـة بـرج الكنيسـة قليـلا حـتى لا ينتـصر المسـلمين في موقعـة الطـول فقامـوا بوضـع قبـة مدببـة عنـد قمـة الـبرج، زادت الحميـة أكـثر فأمـر الشـيخ أبـو العـلا مقاولـه بزيـادة طـول المئذنـة و زيـادة حجـم الهـلال فوقهـا، بعـد أن فرغـا الجانبـين مـن معركتهـم بأسـابيع انهـارت المئذنـة العجيبـة عـلى رووس المـارة بالسـوق، ومـع انفجـار صديـد التوتـر والحقـد قـام السـنية بعمليـة تأديـب شـاملة بحـرق وتحطيـم محـلات المسـيحين بالشـارع حـتى فـرط زمـام الأمـور أكـثر بعـد أن طالـب خالـد حشيشـة الجماعـة بطـرد جميـع المسـيحين وهـدم الكنيسـة عـلى رووس قاطنيهـا، فبـدأوا أولاً بإلقـاء الحجـارة عـلى المبـنى ثـم أتى متحمسًـا بزجاجـات الملتـوف الـتي تسـببت في حريـق الكنيسـة تمامـا وسـط تهليـل وتكبـير.

شـهد شـارعنا دخـول مصفحـات وسـيارات الأمـن المركـزي لأول مـرة، أتذكـر صـوت طلقـات البنـادق الرشاشـة وصراخ النسـاء خلـف الأبـواب عـلى طـول الشـارع، حشيشـة و جماعتـه معتصمـون فـوق سـطح أحـد البيـوت يتبادلـون

إطلاق النار على روؤس جنود الشرطة، أتذكر أمي وهي تهرول لتغلق النافذة وتتبطح جواري تحت السرير وأبي لا يعبأ بأي شئ في غرفته يكتب مع ذكرى صوت الحرب الدائرة على مرمى حجر من بيتنا ممزوج بصوت أم كلثوم تغني (يا ريتك كنت جنبي) القادم من غرفة أبي فبدا المشهد لي سيريالي متداخل وعبثي.

بعد ساعات مرت كدهر على شارعنا خفتت أصوات الطلقات وطنين صفارات إنذار سيارات الشرطة، انتهت المعركة بمقتل خمسة من أفراد الجماعة وبعضًا من أفراد الشرطة غير ضابط العملية ذو الرتبة الكبيرة مما سرَّع من وتيرة الاقتحام بعد أن سقط برصاصة في عنقه، خالد حشيشة ومجموعة من جماعته تمكنوا من الفرار والمعركة دائرة.

بعد أسابيع وبعد أن ملت عيون الشرطة السرية من اقتفاء آثار خالد حشيشة، ظهر خالد في شارعنا تلك المرة كانت مع عصبة كبيرة مسلحيين بالأسلحة البيضاء، والجنازير وزجاجات الملوتوف.

***

كان أول هدف لهم دكان ميخائيل وشريكه السري الورداني الكبير، فأحرقوه بعد أن جروا ميخائل المرتعد وسط الشارع مكيلين له الضرب وهم يصيحون صيحة واحدة (إن الحكم اليوم لله).

وبعدها انهالوا بالضرب على رواد المقهى والسابلة وكل من ألقاه حظه التعس في هذا التوقيت، فخرج لهم الورداني ورجاله على رأسهم عاطف القرش بجسده الربعة وشعره الأشعث ممسكا بعصاه الغليظة يرقّصها في يده.

اشتبك أهل الشارع مستقويين ببعضهم البعض، وبغضبة الورداني الكبير مع خالد حشيشة وجماعته، انطلقت المعركة الدامية وتحطمت على إثرها واجهات المحلات، وحُرقت السيارات أصوات الضلوع المتكسرة في منتصف الشارع.

حتى أتت لحظة الحسم، عندما تحالف بلطجية الميدان مع الورداني الكبير ضد السنية، ومع شعور خالد بانكسار شوكته، أخرج مسدسًا من جيب جلبابه، وأطلق عيارا كيفما اتفق، فاستقر العيار في بطن عاطف القرش، الذي تمالك نفسه وهوى على رأس حشيشة

بعصاه الغليظة بآخر بارقة من قوته، وصرعه أرضًا غارقًا في دمه.

لولا وصول الشرطة لكان الرعب ابتلع الشارع، تم القبض على باقي جماعة حشيشة تاجر المخدرات التائب ومات هو، كما ودع عاطف القرش العالم بعد أن حاول الناس المنكبين عليه تلقينه الشهادتين قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومع آخر ظفرة لخروج الروح قال : (ياعيني على اللي حب ولا طالشي).

لتعود روحه إلى بارئها في مشهد ملحمي، احتفظت به ذاكرة شارعنا سنوات وسنوات، ونسجت حوله أسطورة تلو الأخرى عن عاطف القرش قاتل الإرهابي.. هذا كان دائما ما كانوا يستهلون به الحكاية.

طال زمن علاجي، حتى أيقظني أبي وهو يجلس على طرف السرير، وفي يده ورقة ومقص ثم قام بقص الورق على شكل عروسة بيضاء ورقية ذات خطوط، ثم أحضر إبرة وجلست أمي أمامه.

بـدأ أبي بتخريـم العروسـة ويذكـر مـع كل ثقـب إن هـذا الثقـب في عـين فـلان أو عـلان، ثـم أشـعل النـار في الورقـة وأراحهـا لتكمـل احتراقهـا في صحـن.

بعـد أن أكلتهـا النـار وتراكـم الرمـاد والسـواد في قعـر الطبـق، غمـس أبي سـبابته في الرمـاد ثـم رسـم عـلى وجهـي عـدة علامـات، صلبـان وأهلـة ونجـوم خماسـية وهـو يتعـوذ، ثـم دثـرني وتركـني أكمـل النـوم.

لـم أنـم بـل غرقـت في سـواد الغرفـة ورائحـة الحريـق وطعـم الرمـاد الـذي حملـه عـرقي تحـت الأغطيـة الثقيلـة، إلى مفـرق فمـي فتذوقتـه وارتعشـت عنـد أول ضـوء للنهـار مسـتيقظا في كامـل صحـتي بـلا حُمـة ولا ألـم.

قفـزت مـن عـلى السريـر فرحًـا بعـودة صحـتي ويومهـا ترسـب داخـلي أول طعـم لكلمـة معجـزة..

***

ـ٩ـ

المعجـزة هـي دسـتورنا الخفـي المتعـارف عليـه، هـي صيغـة مقبولـة دائمًـا لتفسـير أي حادثـة.

الغامـض هـو المنطقـي المـادي والمـاورائي صنـوان في إطـار الإعجـاز، أحاديـث المعجـزات تُـؤكل مـع الطعـام، وتُدخـن مـع التبـغ، وتلهـو مـع اللهـو، وتُسـتعلن في الجـد.

دائمـا الموعظـة النهائيـة أن لا داعـي للتفسـير، فربـك قـادر عـلى كل شيء.

شـعبان يحـاور أبي في وقـت العصـاري المعتـاد في الشرفة، يخـبره أبي بحـذر عـن مشروعـه القائـم، شـعبان يشـجعه ويسـتغرق في الحـكي:

-هـل تعلم يا أستاذ محمـود أن كل شيء يحـدث لخير ما، حـتى ولـو لـم نفقه سـببه، عـلى مجهـودك وكفاحك سـتجازى عنـه خـيرًا، والله والله هذه سـنة الكـون، لكل مجتهـد نصيب.

بالمناسـبة سـأحكي لـك حكايـة غريبـة حدثـت معـي، منـذ عـدة أشـهر قمـت بالذهـاب للمنصـورة لأبيـع قطعـة أرض كنـت ورثتهـا عـن أبي.

وبعدمـا أنهيـت العقـود وقبضـت ثمـن البيـع ووضعتـه في حقيبـتي الجلديـة، وهممـت بالعـودة للقاهـرة في نفـس اليـوم، وأنـا في ميـدان المحطـة بالمنصـورة، عرجـت عـلى محـل عصـير قصـب شـهير شربـت العصـير ومـن فـرط التعب والقيـظ نسـيت الحقيبـة عـلى أرضيـة المحـل، وتذكرتهـا بعـد عـدة خطـوات وأنـا متجـه لمحطـة القطـار.

هرولـت للمحـل لـم أجدهـا سـألت البائـع، أنكـر أنـه رآهـا فذهبـت لقسـم الشرطـة وقدمـت بلاغـاً، وبعـد سـويعات لملمـت خيبـتي وقهـري وملامـتي لنفـسي عـلى رعونـتي، وجلسـت أنتظـر القطـار مسـلماً أمـري إلى الله، حـتى لفـت نظـري صـوت رجـلان يتعـاركان عـلى رصيـف المحطـة وبينهمـا حقيبـة سـوداء تشـبه حقيبـتي الضائعـة.

بـدا لي أنهمـا لصـان يتعـاركا عـلى تقسـيم الغنيمـة، فابتهجـت ولـم أملـك نفـسي إلا وأنـا وسـطهما أصارعهمـا عـلى الحقيبـة، صرخـت مناديًـا عـلى أمـين الشرطـة لأسـتنجد بـه فخافـا وهربـا.

أخـذت الحقيبـة وركضـت حـتى ألحـق القطـار الـذي بـدأ في الانطـلاق، حامـدًا الله عـز وجـل عـلى معجزتـه الكبـيرة.

في القطـار، جلسـت عـلى مقعـدي وأنـا أضـم الحقيبـة إلى صـدري كأنهـا طفـلي الـذي عـاد بعـد التيـه، وحمـدت الله مجـددًا.

ثـم فتحـت الحقيبـة متلهفًـا لاتفقـد المبلـغ، والسـؤال الأزلي فيَّ يـدور في نفـسي هـل المبلـغ ناقـص؟، هـل المعجـزة سـتكتمل؟

ومـن أول نظـرة شـعرت أن حجـم الأوراق النقديـة أكـثر مـن المبلـغ الأصـلي، وفئـات النقـد أعـلى.

أخـذت الشـنطة واتجهـت متلهفـاً إلى الحمـام، أغلقـت البـاب وشرعـت في عـد النقـود، عددتهمـا مـرة واثنـين وثـلاث، ومـع كل مـرة عينـاي تـزداد اتسـاعًا، المبلـغ أكـثر بكثـير مـن

ثمن قطعة الأرض، بل مع المرة الثالثة، أيقنت أن المبلغ عشرة أضعاف المبلغ الأصلي.

فتشت في ثنايا الحقيبة علني أفهم، حتى تعثرت أناملي في ظرفٍ، فانتشلته بسرعة، كان ظرفًا حكوميًا، فضضته لأجد صورة خطاب موجه من شركة للمعدات الهندسية إلى البنك، وورقة صغيرة وصورة إذن صرف، باسم شخص لم أسمع به من قبل.

ووجدت رقم هاتفه مكتوباً بحبر أزرق خارج الظرف، وضعت كل شيء في الحقيبة واحتفظت بالخطاب، وعدت إلى مقعدي أفكر ماذا أفعل ؟ هل أقنع بما منَّ به الله عليَّ كتعويض وأنسى أمر الخطاب برمته؟

أم أعيد المبلغ لأصاحبه حتى لا أسقط في حبال الحرمانية؟ وتوصلت إلى حل وسط، بعدما فكرت في رقم المال الموجود في الحقيبة، إن نسبة العشرة بالمائة التي سأكافىء بها ستغطي معظم خسارتي.

أول ما وصلت إلى محطة رمسيس، اتجهت إلى الهاتف العمومي، وطلبت الرقم الموجود على الظرف، أجابني

أحـد موظفـي الشركـة، فأخبرتـه بمـا حـدث وحوّلـني إلى الشـخص المنـوط الـذي أعـدت عـلى أسـامعه مـا حـدث، شـكرني بحـرارة واتفقنـا عـلى موعـد بالقاهـرة لتسـوية الأمـر.

بعـد يومـين تقابلنـا وسـلمته الحقيبـة، وبعـد إلحـاح منه لتسـليمي نسـبتي القانونيـة، وافقـت وأنـا أبـدي اسـتحياء_ كمـا تعلـم يـا أسـتاذ محمـود أنـا رجـل عفيـف النفـس لكـن الأمـر لـه أحـكام_ وشـكرني وانـصرف إنهـا معجـزة يـا أسـتاذ محمـود متكاملـة الأركان، وتعويـض مـن الله لتعـبي ومـالي الحـلال.

أبي لـم يـرد، وتركـه في ملكوتـه، بعـد أن رشـف شـعبان آخـر رشـفة مـن الشـاي، أعـاد عـلى أبي طلبـه بـأن يسـمح لي بالانضمـام لنـادي الأدبـاء الـذي يديـره، فهـذا سـيؤثر بالإيجـاب في تنميـة شـخصيتي، لأن النـادي ينظـم رحلـة إلى الإسـماعيلية في نهايـة الأسـبوع، وهـذا سيسـمح لي بالاندمـاج مـع أقـراني والأكـبر مـني سـنًا وأتغلـب عـلى لعثمـتي المرضية.

_صحيـح يـا أسـتاذ محمـود هـل سـمعت قصـة المعركـة؟ يقولـون أن الـورداني وبعـض النـاس حاولـوا تلقـين عاطـف القـرش الشـهادتين، لكنـه مـات وهـو يقـول عبارتـه الشـهيرة،

أستغفر الله، لقد كان مجنوناً، لكنه كان جدع وصاحب واجب.

ينتهي اللقاء ككل لقاء، ويعود أبي إلى كتابته، كان متوترًا، أكاد أشم توتره كما تفعل الكلاب، نظر إليَّ وهو يمسك رزمة ورق داخل الملف.

_ أنهيتها ياعمر، موعدي غدا مع عويس.

كان الترقب وخوف التحقق، ورمال المنطقة الآمنة يعصره، لم ينم تلك الليلة، نور غرفته كان يتسرب طوال الليل، مع صوت عبد الحليم الدائم مغلفاً بدخان أبي وجلسته التي لا تكاد تتغير.

أمي تُهدأ من روعي بالقول والفعل.

أعود إلى المدرسة بعد أجازتي المرضية المفعمة بالتراجيديا وأشباح الموتى، التي جالت في شارعنا طوال الأسابيع السابقة، عاطف القرش عاد كشبح كل ليلة قبيل الفجر، الشارع يسمع صيحتي تدوي في خلاء الحالمين..

عدت للمدرسة بافتنان جديد.. كنت مفتونا بتلك الشارة الحمراء التي تميزني، والقلة المختارة، المتسللون

بين فرجات النظام، إلى براحات الحرية، تاركين أمثالنا قابعين خلف الجدار نروم خلاصاً ونصارع الوقت المنحدر من ذنب عقرب الدقائق الميتة في فصولنا الكابية.

كنت أتابعهم يروحون ويجيئون في فناء المدرسة كطاووس برية ملونة، قوس قزحية منفوشة، طوال ساعات النهار، يختالون بسلطة الشارة الحمراء على أزنادهم، وعبارة (حكم ذاتي) تلمع بلون له طغيان أحبار الأختام الحكومية المقبضة.

لم أعلم يومًا طقوسية الاندماج في تنظيمهم، هل يتوجب عليَّ أن أعمد في بركة الماء الآسن الذي كونتها سيول مرحاض المدرسة المتسربة كقشعريرة أوائل يناير؟!.

هل يتوجب عليَّ أن أوتي بفعل شجاع لافت كضوء سيارات الإطفاء، كي يتم اختياري؟!.

تشجعت يومًا وسألت مدرس التربية الرياضية، في صبيحة وقحة عن الشروط، فنظر إليَّ بتعالي الموكلين بحل سر كأس المسيح المقدسة، ثم قال لي وهو يتسآل بتململ:

_لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

هـذا الرجـل الـذي كان يذجـي وقتـه كثـيرًا، بجلدنـا كنـوع مـن التفريـغ الانفعـالي لأمـور خفيـة عنـا، تحـدث داخـل تلافيـف حياتـه الشـخصية.

أذكـر يـوم تكويـن فريـق المدرسـة لكـرة القـدم، كنـت متحمسًـا وخيـالات الطريـق الـذي كنـت أمشـيه يوميًـا إلى المدرسـة أخاطـب ذاتي بآمـالي أن أكـون أديبـاً عظيمـاً، ولاعبـاً عظيمًـا يومًـا مـا، تغويـني كنـداءات عرائـس البحـر في وسـط العاصفـة.

لعبـت المبـاراة التجريبيـة، وراوغـت الفريـق المقابـل، مسـجلًا هـدف الفـوز، وبعـد انتهـاء المبـاراة وقفـت أنتظـر إعـلان أسـماء الذيـن وقـع عليهـم الاختيـار، لـم أجـد اسـمي فذهبـت إلى المـدرس نفسـه لأتظلـم، وأخبرتـه عـلى مراوغـتي ومهـارتي الـتي أشـعلت الملعـب.

نظر إليَّ نفس النظرة المتململة وقال:

_ مراوغتك مجرد حظ.

بعدهـا علمـت أن الأسـماء المختـارة سـلفًا، بنـاءً عـلى المعـارف، وتغلغهـا في الجسـد الإداري.

عرفـت يومهـا.. أنـنى وحيـد بـلا سـند ولا أملك غـير نفسي.

بعـد عامـين، قابلتـه وأنـا أبتـاع الفلافـل، كان يمسـح أرضيـة المحـل، تقابلـت نظراتنـا فأشـاح عـني بأنكسـار.

كنـت أعـاني مـن التلعثـم، وأنـا في سـن أحـدث، وهبـني الله مُدرسـة ذات قلـب يسـع العالـم، أخـبرت أمـي عـن مشـكلتي وعـن الحاجـز الـذي يمنعـني مـن التفاعـل رغـم نبوغـي، وعرضـت المسـاعدة، ووافقـت أمـي.

فعلـت آخـر شيء متوقـع، جعلتـني أنخـرط في جماعـة المناظـرة.

(كي تتعلـم السـباحة يجـب أن تُلقـى في البحـر يـا عمـر).. قالتهـا مدرسـتي.

معجـزة تتحقـق، وأنطـق بسلاسـة وبلاغـة وأتقـن المواجهـة مـع الآخـر المرعـب الغامـض المظلـل بالخشـية.

يومًا ما وبعد عودتي من المدرسة وجدت جيراناً جددًا، يسكنون في الشقة المقابلة لنا، زوجان وطفليهما.

طفل يكبرني قليلًا، وشقيقته تصغرني قليلًا، ليلى كان اسمها، كانت معجزة جديدة سمراء.

وخضار عينيها العجيب، أول مرة أرى عيون الناس ليست بنية أو سوداء، الولد كان في الكونسرفتوار، يدرس دراسته العادية إضافة إلى الموسيقى، ربطني به أولا تسللي إلى الشرفة، كي أستمع إليه في غرفته وهو يتدرب ليلًا.

تعرفت عليهما وأصبحا صديقين لي، بالإضافة إلى التوأم، نحن الخمسة نفعل كل شيء، غير أنا ما يميزني أنني همت بليلى.

***

نمرح سويًا ونقرأ سويًا، ويعزف لنا باسم أخوها مقطوعة على كمان المرح، نضحك حتى أتى يوم وانتحى بي التوأم جانبًا.

وقال لي أحمد ألم تلاحظ يا عمر شيئًا في فتاتك المدللة وأخيها، نظرت إليه بغباء، ولم أفهم الأهمية التي يتحدثان بها ويتبادلان النظرات بسببها، كأنها كارثة كونية، فأتبع محمد يا عمر إنهما ليسوا مثلنا، إنهم (كفاتسة).

_وما معني (كفاتسة)، قلتها متعجبًا، فنظر لبعضهما البعض وإليَّ كأنهما يشاهدون معتوهاً يلهوا بالنار.

_كفاتسة يعني (أربعة ريشة) يعني مسيحيين يا عمر.

نعود إلى جلستنا أو ننضم إلى الشقيقين في جلستنا، يشير إليَّ أحمد بطرف خفي، حتى ألمح الصليب المرشوم على رصغ ليلى، كان أخضر يحتضن سمار جلدها كأنه جزء من خضار عينيها سال وتبرعم ثم تفتح على رصغها.. شعرت بالسعادة.

كنت أجالسها في شرفة غرفتها وأخيها بالداخل يتدرب على مقطوعة موسيقية، طلبت منها طلبا غريبًا، أن ألمس بؤبؤ عينيها الأخضر.

فجفلت وأخبرتني أنني من الأفضل أن أقبلها، ففعلت، فمادت بي الأرض وتغلغت الموسيقى بمسامي، جلست بعد أن ركضت إلى الداخل تحت سطوة مشاعر أختبرها لأول مرة، أول قطفة عسل من الحياة.

بعدها بيومين أخبرتها أنني أريد أن أكتب عن الموسيقى، ذلك الكيان الإلهي الذي يحس ولا نقوى على تجسيده ماديًا، كنت فيما بعد أمرن نفسي على الكتابة، أترك للاوعي ينفجر.

فكانت ترجمة الموسيقى وتحويلها لحروف على ورق، معجزتي، أكتب ما تعكسه من مشاعر وأفكار داخلي على الورق حتى تتكشف ذاتي الغارقة، وسط أمواج العالم الصاخبة، أجد ذاتي الضائعة فقط عندما أكتب عن الموسيقى لا عن البشر أو الصراعات أو الرومانسيات التي ترقد في قبور عُشاق القرن التاسع عشر، لا عن الحزن أو التفتت أو المقاومة المفتعلة في أشعار طريدي الأوطان ولا عن الفراديس الضائعة.

لا أكتب عن حنين أو قطار الحياة الذي يذهب مسرعًا نحو نهايته الحتمية، لا عن الاستعارات البلاغية الجوفاء

العجفاء من كثرة الحلب ومن ثم إعادة الحلب، ثم حلب وحلب وحلب وحلب، حتى جف ضرع اللغة اليتيمة.

أتحدث وأتحدث بلا توقف على الورق، كأني أغني أو أقفز على سطور النوتة الموسيقية، مع لهاثٍ أظل أكتب عن الموسيقى، حتى تخبرني نفسي عن نفسي، وتكشف أمامي مصائر العالم، ومصيري ذاته، ومآلاتي في جحيم مع غير المتكلفين البغضاء الذين لا يقنعون بالمتاح والطبيعي، ويغووون الظلال في خلفيات لوحات رامبرانت، والمناطق الرمادية في أفلام فلليني.

تأسرهم الهوامش.. فيضيعون.

دائما كنت أنفر من الاستيقاظ باكرًا، بين تسلط أبي المهيمن على مواعيد الصحو اليومية، وبين التشبث العنيد برفض أهمية تراثيات البكور وأساطير صحيفة الرزق التي تلتهمها الطيور المبكرة..

هل من يتأخر في النوم يحرم من رزقه؟!.

الرزق يطارد العبد كالموت حتى يتحقق ويكتمل مدده قالها شيخ المسجد في خطبته .

حتى دفعتني ليلى أن أصحو أبكر من الطبيعي، ألقاها أمام البيت ونمشي سويًا إلى المدرسة، كانت البداية مصادفة على سلم بنايتنا حتى اعتادتنا فكنا نتقابل على رأس الشارع ونتمشى سويًا متماثلان في هرمونية، كتماثل أرقام حجري نرد، أو كما تدَّعى في مقاهي مدينتنا (بف).

ذات صباح وضعت كفها بكفي، بدأت أغير من عاداتي ورغباتي، فتعلمت حلاوة البكور والاستيقاظ والصحو.

***

ـ١٠ـ

كان صحـوًا مشـهودًا ذاك اليـوم، المذيـاع يبـث مقدمـة موسـيقية وصـوت فـؤاد المهنـدس الـدافيء المبتسـم، السـاخر _المهنـدس أحد أسـباب بهجـتي المسـتمرة الغامضة طـوال الأزمنـة التاليـة_ يقـول بعـد المقدمـة (كلمتـين وبس)، أمـي تعـد الإفطـار بتعجـل رغـم أنـه لا يفتقـد الدقـة وأبي في غرفتـه يرتـدي بذتـه البنيـة الوحيـدة الـتي كلـح عنهـا اللـون، وأنـا أقـوم بارتـداء ملابـسي وأعـد حقيبـتي للخـروج إلى المدرسـة متلهفًـا ومتعجـلًا أكـثر مـن والـداي.

أضـع دفاتـري المدرسـية وكتـبي وبينهـم روايـة (قصـة ميدنتـان) لشـارلز ديكـنز، ثـم تذكـرت الأهـم الـذي ظللـت

أذكـر نفـسي بـه حـتى لا أنسـاه دفـتر يوميـاتي. أمـي أعطتـني شـطائر الجبنـة بالطماطـم وأبي خـرج مبتسـمًا، احتضنـني وهـو يطبـع قبلـة عـلى جبيـني، ينخـرط في حديـث متشـعب، لكنـه سريـع مـع أمـي وطلـب مـني أن أدخـل غرفتـه لأحـضر الملـف الأزرق مـن عـلى الطاولـة.

كان ملفًـا سـميكًا وثقيـلًا ومكتظـاً بـالأوراق والجهـد وتبديـد الإضـاءة وحـرق عيـدان التبـغ، أفتـح غـلاف الملـف بدافـع فضـولي الملـح طـوال الأسـابيع الفائتـة للاطـلاع عـلى عنـوان مـا كتبـه أبي، وجـدت الاسـم أمامـي في وسـط الصفحـة الأولى البيضـاء (بلـد الحمـير).

مسرحيـة مـن ثلاثـة فصـول، واسـم المؤلـف «محمـود شـاهين»، أفـر في الأوراق حـتى يفزعـني نـداء أبي مـن الخـارج يتعجلـني، جفلـت وارتعشـت يـداي فسـقط الملـف وتطايـرت الأوراق كألـف سـفينة شراعيـة في تمـاوج عبـثي ثـم اسـتقرت عـلى أرضيـة الغرفـة.

وقفت مشدوهًا، وأسقط في يدي فانكببت على جمعها كيفما اتفق، ثم أعدت وضعها داخل الملف، وكل ما كنت حريصًا عليه أن تظل الصفحة الأولى باسم المسرحية والمؤلَّف العابس دائمًا في الصدارة.

خرجت إلى أبي وخوفي من أن يكتشف ما فعلته بترتيب أوراق المسرحية ينازعني، ناولته الملف فأخذه ووضعه تحت إبطه الأيمن، ثم طلب من أمي ونحن متجهين إلى الخارج أن تدعو له اليوم من قلبها، وهو لم يعتد يومًا أن يثق في استجابة دعائه الشخصي.

نزلنا السلم هو أمامي وأنا أتبعه، كنت أنصت لوقع حذائه الجلدي القديم على الدرج، مع كل خطوة يصدر نعله الأيمن صوت صفير، يحاول أبي تعديل مشيته، وجهه احمر خجلًا وهو يلقي نظرة على شكل الحذاء وصوته المصمم على الدوي.

-اللعنة! حتى نصف النعل الجديد بصريره هذا مصمم على إحراجي، كأنه صوت يدعو الناس لتأمل حالي.

أمـام البيـت يتركـني ويذهـب لحـال سـبيلي، وقفـت أنتظـر ليـلى عنـد الناصيـة، مـر بي التـوأم وهمـا يلقيـاني بنظرات احتقـار، لأني فضلـت عليهمـا صُحبـة السـمراء، بعـد عـدة خطـوات نظـر إلى أحمـد وقـال: لا صبـاح عـلى نـذل!.

وقفـت ألملـم شـتات الـروح، ناظـرًا لظهـر التـوأم وهمـا يبتعـدان حـتى وقفـا عـلى الرصيـف المقابـل منتظـران حافلـة المدرسة.

وقفـت عنـد حافـة الطريـق والـبرد يغـزوني كفايلـق رومانيـة جامحـة، ارتعشـت وبـدأت أنفي في السـيلان، سـيلان المخـاط جـرّاء الانفلوانـزا بدايـة معرفـتي بالسـيلان، ولـم أفهـم يومًـا، لمـا يرتبـط المـرض والشـقاء وتنقـل المـواد الطبيعيـة بـين تجمـد وتبخـر وسـيولة، ولـم أفهـم يومًـا لمـا السـيلان هـو ضريبـة العشـق، ولمـا تقـترن رمزيـة الحيـاة بفعـل (يسـيل)، روحـي سـالت وفـؤادي سـال والأحـلام سـالت كقالـب مـن الزبـد في مقـلاة، والدمـاء سـالت كأضحيـة عـلى مذبـح الـرب حـتى أتى اليـوم الـذي تجسـد فيـه فعـل يسـيل بإصابـتي بسـيلان الجهـاز التناسـلي الوغـد.

وقفت عند حافة الخذلان حتى أتت الحافلة، وليلى لم تأتِ، حملت حقيبتي وصعدت للحافلة متشظي وأنا أنظر خلفي أمام نظرات التوأم المتشفية، ثم جلست وحيدًا في آخر مقعد أطلق شباك بصري كصياد إلى نهر الطريق.

الحافلة تتحرك وأملي يذوي في أن تظهر السمراء ذات العيون الخضراء في أي لحظة.. لم تظهر ليلى.

***

نزل أبي من الحافلة في شارع رمسيس متجهًا إلى مكتب رجب عويس بالجريدة القومية الكبرى، حاملًا حلمه تحت إبطه مرتديًا حلة النبوغ فوق بذته الباليه، كل شيء في رجب عويس أو ما يرتبط به له طابع التكلف والاستعراض لرسم صورة بعيدة عن جوهر صاحبها.

برامج إذاعية ومقابلات تليفزيونية ومركز كبير في الصحافة، انعكس بدءًا من مدخل مكتبه بغرفة الانتظار الملحقة به ومقاعدها الجلدية، وسجادها السميك، ورائحة المنظفات ومعطرات الجو الساكنة فيها، ثلاث

صور تتصدر جدار غرفة الانتظار، واحدة كبيرة لمبارك تجاورها صورة للسادات ببذته العسكرية، وتحتهما صورة أصغر منهما قليلًا لرجب عويس بنظارته الشمسية الداكنة.

سكرتيرته الحسناء التي تبدو كأنها خرجت توًا من طور المراهقة، هيفاء جميلة لامعة الجلد نجلاء العينان، قابلت أبي بطريقة دمثة، وطلبت منه أن يرتاح، تفقدها أبي بنظره وهي تفعل اللاشيء بأوراق فارغة على مكتبها، محاولة إبداء أهمية للاشيء _الحسناوات يجملن اللاشيء_ طلبت لأبي قهوة سادة ووهبته ابتسامة، تذكر أبي صدى إشاعات منتشرة على الرجل في مجالس النميمة الثقافية لمقاهي وبارات وسط البلد، إنهم يتحدثون عن ولع الشيخ الستيني آخر أنبياء حقبة الثقافة الجماهيرية للعذارى، وفضائحة الخفية التي تتنقل من لسان إلى أذن، بين تحرشه بفتيات من متدرباته بالجريدة، وبين استغلاله الجنسي لمعجباته الكثيرات.

عويس العظيم المتنور رأس حربة العقلانية وحامل لواء الثقافة بمصر المنتشر في كل جحر وعلى صفحات كل

الجرائـد بمقالاتـه المفككـة المقعـرة عـن الوعـي الجمعـي، وكيـف تـم تسـطيحه أمـام القيـم الرأسـمالية الغازيـة إبـان حكـم عبـد النـاصر، وبعدهـا في حقبـة أخـرى سلسـلة مقـالات عـن ضرورة الانفتـاح عـلى الرأسـمالية الغربيـة، وحتميـة الخـروج مـن شرنقـة التجربـة الاشـتراكية المفلسـة إبـان حكـم الرئيـس المؤمـن في السـبعينيات المنصرمـة، ثـم في حقبـة أخـرى أكمـل سلسـلة مقـالات تبـارك حكـم الرئيـس المبـارك لعـشرة أعـوام دون كلـل أو حمـرة خجـل مـن رحلتـه وقفـزه عـلى موجـة كل عـصر، مادامـت بضاعتـه رائجـة فـلا ضرر، ولا ضرار مـن أن يلقيـه الحاقديـن _كمـا يصفهـم_ بالتضـارب والتدليـس.

كان يقـضي أوقاتـه بفخامـة يمـارس حياة الكاتب الشـهير، بـكل مـا فيهـا بـلا كتابـة فعليـة سـيدُ هـو عـلى طـاولات المطاعـم الفخمـة ومكتسـح النـدوات بجـدارة، كان يوليـوس قيـصر الحيـاة الثقافية، رغـم أن المحصلة الأدبيـة له ومنتجه الحقيقـي _لا المـسروق أو المقتبـس أو مـا يقـوم بشرائـه مـن كتـاب أشـباح مغبونـون_ فارغـة ومظلمـة كإسـت فـأر.

***

أتت مقابلة عويس لأبي كمقابلتهما التي اعتبرها عويس نوع من التباسط الجماهيري مع العامة بالمقهى كل أسبوع، ابتسم عويس ابتسامته السمجة التي تتكبر، رغم محاولته الظهور بمظهر بسيط، أمسك المسرحية ألقى عليها نظرة سريعة كالعادة وقال:

_ الفصول غير مرتبة يا محمود، ثم أتبع.. المهم هل تملك نسخة إضافية، نفى أبي وأخبره أن هذه هي النسخة الوحيدة.

هم أبي بإلقاء نظرة على الأوراق غير المرتبة، لكن عويس أوقفه بإشارة من كفه قائلًا، لا يهم لا يهم سأرتبها أنا، ثم أخرج من درج مكتبه ظرفًا مكتظًا، ووضعه أمام أبي وأخبره أنه مبلغًا أكبر بكثير مما اعتاد تقاضيه أجرًا لمقالاته.

-أستاذ عويس ماذا عن المسرحية وموقع اسمي من العمل كما وعدتني؟

-لا تقلق لا تقلق يا محمود، قالها عويس باقتضاب وهو يمد يده بالسلام، آذنًا بانتهاء المقابلة.

وقف أبي متحرجًا ثم اتجه إلى الباب وهو لا يلوي على شيء، هنا أوقفه نداء عويس، عاد أبي مسرعًا وهو يمني نفسه باستجابة عويس لتحقيق ما وعده به.

وقف عويس مادًا يده إلى أبي بالورقة الأولى المكتوب عليها اسم المسرحية (بلد الحمير- مسرحية من ثلاثة فصول، تأليف محمود شاهين).

عاد أبي يومها إلى البيت كمدينة دكت بالقنابل النووية.

***

اختفت ليلى بين ليلة وضحاها كما ظهرت من عدم، بعد عدة أيام تجرأت وقرعت بابها، فتحت ليّ الأم، طلبت منها أن أرى باسم وليلى، أخبرتني بلهجة حادة أن ليلى وباسم يذاكران، ولن يلعبا معي مرة أخرى.

عدت إلى أمي بدمعٍ مكتوم في مقلتيّ، أخبرتها عما حدث، ربتت على ظهري ثم ضمتني وقالت:

-لاتحزن أمهما لاتحبذ أن يختلطا طفليها بالجيران ياعمر، أنت عندك أصدقائك وهما الخاسران في هذا.

لـم أفهـم السـبب ولـم يشـبع أحـد جـوع سـؤال لمـاذا؟ الـذي كان يلتهمـني مـن الداخـل كأنيـاب تمسـاح عمـلاق تنهـش جـزءاً ليـس بقليـل مـن قلـبي، عندمـا قابلـت ليـلى عنـد مدخـل البنايـة فيمـا بعـد حاولـت أن ألقـي السـلام، فأشـاحت بمقلتيهـا الخضراوتـان عـني، وأسرعـت المـشي، وقفـت أسـتند بظهـري إلى بوابـة البنايـة الحديديـة الصدئـة لأهضـم أول درس، أن كل مـن يعـبر مـن خـلال هـذا القلـب سـيذهب كطبيعـة الأشـياء الـتي تسـكن مؤقتًـا، ثـم ترتحـل بعـد أن تقضـم جـزءًا مـن القلـب معهـا وتخلـف وراءهـا فتـات وغربـان وهـوام وحـشرات وخيـوط عنكبـوت وبـوم وحـداءات وأبـراج محترقـة وألـم رمـادي وصميـم متفحـم وبوابـة لنفـسي قُـشر عنهـا خشـبها.

أبي انغمـس في سـجن اختيـاري، يرسـلني كل صبـاح قبـل ذهـابي للمدرسـة لأحـضر لـه الجرائـد القومية الثـلاث، أهرام وأخبـار وجمهوريـة مـن عنـد العـم إبراهيـم صاحـب نصبـة الجرائـد في مدخـل السـوق، كان يلتهمهـا كلهـا سـطرًا سـطرًا باحثًـا عـن خـبر مـا، ثـم يطلـق غضبـه، ويكورهـا ويمزقهـا، ويلقيهـا في جميـع أرجـاء البيـت، المبلـغ الـذي تقاضـاه كفـل

لـه أن يذهـب كل ليلـة إلى بـار درجـة ثالثـة، مدفـون في شـارع عمـاد الديـن، يسـكر ثـم يعـود بعـد الـكأس العـاشر يجرجـر ظلـه المنتـشي إلى البيـت، صبـاح إحـدى الأيـام بعـد أن اعتـدت إحضـار الجرائـد بآليـة دون أن يطلبهـا، وجدتـه نائمًـا بملابـس الخـروج عـلى أرضيـة غرفتـه منقوعـا في آثـار القـيء.

فتـح عينـه ومـد يـده انـتزع مـني الصحـف طالعهـا مسرعًـا وهـو في وضعيتـه الأرضيـة، وأنـا مازلـت واقفـا عنـد طرفـه أحـاول الفهـم، بعـد أن فـرغ اسـتند عـلى المقعـد ليقـف بصعوبـة ثـم فتـح سـحاب بنطالـه ليخـرج عضـوه ويـشرع في التبـول عـلى أوراق الجرائـد وهـو يسـب العالـم والأخبـار والنـاس ومانشـتات الصفحـات الأولى وأسـماء أعضـاء هيئات التحريـر واحـدًا واحـدًا.

أمـي تغـرق في الصمـت الأسـود، تتوشـح الحـزن وتتسربـل بنظـرة الخيبـة الخفيـة، جلسـت أذاكـر جـوار الشرفـة، وأبي يحـاول باسـتماتة إجـراء مكالمـة هاتفيـة لرقـم لايـرد عليـه، وهـو في تصميمـه عـلى إعـادة الاتصـال مـرارًا وتكـرارًا بعـين نصـف ميتـة، ونصـف متشـبثة بأمـل مـا وزجاجـة الخمـر لا تبـارح كفـه.

قامت المصالحة بيني وبين التوأم دون تدبير، فقط أتيا إلى بيتي واحتضناني سويًا ولم يتحدثا فيما جرى، لكن محمد وهو يضع كتاباً جديدًا في يدي قال:

-ألم أقل لك أنهم كفاتسة لا يمكن الوثوق بهم؟.

أبي زادت حدته وعنفه مما دعاني أن أسأل أمي عما جرى، لم تجبني إجابة واضحة غير أنني سمعتهما يتجادلان داخل الغرفة المغلقة، وسمعته يصرخ بجنون في وجهها، وصوت نحيب أمي يتسرب إلى أذني بلا انقطاع.

-أنت يامحمود صرت أبيك الذي تهرب منه.

أبي صار جدي الذي لم يرد أن يكونه وأنا سأكون أبي عندما أرفضه وأهرب منه، جدي الغامض التهمة التي ظلت أمي تلقي بها أبي كلما تقابلت نظراتهما بعد أن نفذ صبرها أمام سوء حالة أبي وخلقه وسكره الدائم.

جدي (شاهين الشيخ) اسمه المألوف لي بحكم اتباعه اسم أبي في كل أوراقه، وتلقيني إياه كاملًا، منذ بدأت أن أدرك، جدي الذي لم أعرفه يومًا وبنظرة أكثر تفحصًا أنا لم أتعرف على شخص واحد يمت لي بصلة قرابة

من جهة أبي في تلك الفترة، عائلة أمي دائمًا هي الحاضرة في الذاكرة والوجود التام كدوائر تقاطع دوائر، نحن لانتذكر الأشخاص بوجوههم المجردة، بل نتذكر ما ينغرس فينا ونتشبع به.

ولد أبي في أعرق أحياء القاهرة الفاطمية تررع بين أزقة حي الأزهر ببيت عائلته التليد الواقع جوار مسجد وسبيل المؤيد شيخ المحمودي كأنه جزءاً من جدار المسجد، أو كأنه طفلاً لجدار السبيل.

المسجد الذي كان في البدء سجن للسلطان العجيب التي تراوحت حياته الحافلة بين الانغماس في التصوف والزهد وبين البهرجة وعقلية المؤامرة التي اتصف بها العصر المملوكي، ملك مجنون متصوف سجين إجباري وهارب عادلُ وظالم زاهد في الدنيا ومتكالب على الحكم.

المؤيد الذي ذابت فيه كل الأضداد بشكل يشابه خلط ألوان متنافرة على قماش لوحة سريالية الطبع.

جدي كان يتشدق في الطرق وعلى المقاهي بنسب عائلته الممتد إلى السلطان المجنون، وأن البيت ما هو

إلا بقايا الوقف الذي تبقى لعائلة الشيخ، شاهين عبد المنعم الشيخ هذا هو الاسم وآخره لقب لا يعلم أحد هل هو إن دل يدل على المؤيد أم على شيخ ما أو فقيّ أو حتى تربى في القرافة الكبرى أو رجل كبير بالعمر، هذا ديدن ألقاب المصريين لكن الجد تمسك بقصة اللقب والجوار لمسجد المؤيد، وإن كان قد ورث شيئًا عن السلطان وهو الحالة، حالة الجنون التي أورثها لعائلته فيما بعد.

جدي أول دفعة تخرّجت من معهد الصحافة، عمل بهيئة الإذاعة البريطانية إبان الحرب العالمية الثانية، كمترجم، وعندما حان سن زواجه دبّر له الأقربون نسب بعائلة السيد هيكل التاجر الثري والعطار الشهير بالدرب الأحمر، يُقال أن السيد هيكل كان عنده بنتين للزواج وما أراده هيكل أن يزوج ابنته الكبرى عقيلة إلى شاهين الشيخ الذي كانت وظيفته وما يملكه من عقار مجاور للمسجد المبارك يكفلان له تأسيس عائلة، لكن عندما ذهب جدي لزيارة هيكل لأول مرة ليتقدم ويصل أوصال النسب حدث أن قابل على سلم بيت هيكل فتاة.

كان يستعد لطرق الباب فوجد فتاة بديعة الجمال تهبط الدرج آتية من سطح البيت، تقابلت نظراتهما فأشاحت بوجهها خجلًا، ولما دخل واستقبله السيد هيكل مرحبًا به، كان شاهين قد فقد شيئًا على السلم، فقد قلبه وشعر بسهم العشق محل فؤاده في صدره.

تحدث الحاج هيكل وسط ترحيبه الحار، وشاهين ساهمًا وبعد أن انتهى هيكل من المجاملات الطبيعية، مد يده لمحمود ليعلن موافقته على القران، وبلّغهم أن يأتي بأهله لقراءة فاتحة عقيلة الخميس القادم.

دخلت عليهما عقيلة بصينية الشاي لتقدمها إلى عريسها المرتقب ولكي تراه ويراها كما نص العرف في زمانهما، عند أول خطوة منها على البساط انزلقت وسقطت الصينية بما فيها من أكواب، هنا هرعت الأم والأخت الصغرى اللتان كانتا تتصنتان كالعادة عند باب الغرفة لنجدتها ودعمها في هذا الموقف أمام عريسها.

هيكل يلهج محاولًا كسر الحرج، خير خير.

مـع دخـول الأم والأخـت الصغـرى، وقعـت عـين شـاهين في المـرة الثانيـة في أقـل مـن سـاعة، على وجـه فاتتتـه الهابطة مـن السـطوح، فانتصـب واقفًـا وهـو عـلى مشـارف الجنـون، وصـاح بالحـاج هيكل:

-أريد أن أتزوج هذه، ابنتك الصغرى ياحاج.

جلـس السـيد هيـكل كأنـه ألقـي عـلى رأسـه مـاءً بـارداً، والـزوج تعتـدل ضاربـة صدرهـا بكفهـا وهي تشـهق مـن هول الموقـف وفعـل المجنـون، وعقيلـة كمـا هـي عـلى البسـاط، لكنهـا انخرطـت في البـكاء وهـي تنعـي حظهـا بصـوت عـالٍ «ياميلـة بختـك ياعقيلـة»، وشـعورها باسـتمرار خيبـة الحـظ وقلـة الحيلـة واقـتراب شـبح العنوسـة والجفـاف.

فقـط رتيبـة الصغـرى ذات العيـون الزرقـاء كالبحـر الشاسـع الممتـد، ابتسـمت في خفـاء وهـي تخفـي فمهـا بكفهـا، طـرد الحـاج هيـكل جـدي وهـو يلقيـه بـكل نقيصـة، خـرج شـاهين مضطـرب الحـال كالمجـذوب كأنـه لايشـارك في المشـهد كأن روحـه فارقتـه لتسـكن العينـين الزرقاوتـين.

***

جُـن جـدي ككل الشـاربين مـن نهـر الولـه ومـاء الغـرام المسـتعر الـذي لا يشـفي غـلًا، بـل يزيـد العطـش مـع كل رشـفة، وجـده النـاس مـن الأقـارب والأصدقـاء هائمًـا في الشـوارع بـين الخمـارة يسـكر حـتى تفيـض منـه الآه، تخـرج مـع اسـم رتيبـة بعـد أن يصـل إلى قـاع الوجـد ويصطـدم بجـدار الاحـتراق، يجـد قدمـه تصـل بـه إلى التكيـة عنـد الربـع ينضـم إلى صفـوف الصوفيـة وطالـبي السـلوان في رقصاتهـم، يطيـح برأسـه يمينًـا ويسـارًا وهـو يـضرب بكفـه بـكل مايملـك مـن قـوة موضـع قلبـه، كأنـه يمنعـه مـن القفـز خـارج صـدره، وصـوت المنشـد يشـدو «لنـا الله يـا أصحـاب القلـوب، إن قلـبي يطـير مـن قبضـتي».

تدخـل أهـل الحـل والربـط والحكمـة، لحـل معضلـة الشـاب الواعـد المحبـوب ابـن الأكرمـين فتوسـطوا لـه مـرارًا عنـد الحـاج هيـكل الـذي رضـخ ورضـا بالزيجة بعـد أن عُرض عليـه حـلاً يـرضي جميـع الأطـراف، يـتزوج شـاهين مـن رتيبـة وعبـد العزيـز شـقيقه بعقيلـة الأخـت الكـبرى، وكان إقنـاع عبـد العزيـز الشـيخ يسـيرا لمـا بـه مـن عاهـة في عينـه اليمـنى صنعـت منـه نصـف كفيـف، أعـور بعـين واحـدة.

كان عرسهما مشهودًا انطلقت زفة الزوجان لتطوف شارع الأزهر والنحاسين وبيت القاضي وميدان الدراسة، حتى عادوا إلى بيت الشيخ، دخل عبد العزيز على عقيلة وشاهين على رتيبة، وكلاهما غرقا فيما قسّم لهم من سعادة وهناء.

مرت الشهور وتجددت الفصول جدي وجدتي ينجبان أبي، وبعد خمسة سنوات أتت عمتي وبعدها عمي.

وقت أن انتقل جدي للعمل بجريدة الأهرام بعد التأميم كان نابهًا، وتكفلت علاقاته القديمة بأوساط الدبلوماسيين الغربيين، بتثبيت مركزه بالجريدة، حتى انتهى هناء الحال، وأعلنت الوحدة مع سوريا، وأتت معها الاعتقالات لكل من له صوت معارض أو شُبه لهم أن له صوت، تم اعتقاله، فنانون وكتّاب وصحافيون وسياسيون قدامى وطلّاب بالجامعة وكوادر حزبية قديمة وتيارات مختلفات إخوان مسلمون وشيوعيون، استقبلهم معتقل الواحات ومعهم جدي.

خرج جدي مكسور الروح بعد ثمان سنوات في الجحيم مهدم العقل تائه لايميز زوجه التي عشقها

ولا أطفاله الذين أحب، ومعه فقدانه الوظيفة وخشية أصدقاءه وزملائه مساعدته، عرض عليه السيد هيكل عمل ككاتب حسابات في الوكالة التي أينعت تجارتها وكبر محل العطارة، وفتح له فرع آخر بعابدين بعدما شارك عبد العزيز الشيخ الأعور الذي أظهر ذكاءً فائقاً في أمور التجارة.

كانت الوظيفة بسيطة براتب معقول اعتبره جدي مساعدة مقنَّعة من حميه، قنع لبعض الشهور لكن الجنون المترسب في نخاعه بدّل الحال أهمل البيت والأولاد ورتيبة لينصرف في لياليه إلى الخمارة ومصاحبة عاهرات وسط المدينة، الزوجة أشعلتها الغيرة والإهمال وتمنعه عن الصرف على البيت والأولاد، فاشتكت إلى أبيها وأخيه اللذان لم يكفا عن نصحه ومحاولة تقويمه بلا كلل حتى أتى اليوم الذي اشتبك فيه شاهين مع أخيه داخل الوكالة أمام الزبائن والعمال ترتب عليه أن ترك العمل أمام أنظار السيد هيكل المتحسرة.

بناءً على انحدار شاهين المستمر، منعته رتيبة من دخول المنزل ومقابلة أبنائه، أبي وقتها كان في السادسة

عشر أكبر أخوته وحامل حسرات أمه أمام شماتة العدو وتعاطف الصديق، انكبّ على دراسته بشكل عميق كأنه يدفن تاريخ أسرته كله في الكتب.

ليلة ليلاء عاد جدي سكران متورم الأنف والعين بعد أن طردته العاهرة التي رافقها لشهور، صوت قرعه على الباب أيقظ أموات الجبانة الكبرى في صحراء الدراسة البعيدة، فتحت له رتيبة واضعة جسدها كحائل لتمنعه من الدخول مع الشد والجذب دفعها شاهين هو يكيل لها الصفعات والسباب أتى أبي من الداخل ليذود عن أمه المنهارة المحطمة كبقايا سفينة تطفو بعد أن أطاحت بها عواصف البحر.

دفع أبي أبيه فانتقل الصفع من وجه أمه إليه، فما كان من أبي أن كيّل لكمة لوجه جدي ليطرحة على الأرض.

-وحياة أمك سأريك يا مخنث..قالها شاهين وهو يزحف إلى الخارج.

صباحًا، أتت قوة من الشرطة لتلقي القبض على أبي، كانت تتهمه أنه سرق امرأة، شاهين أوعز إلى إحدى

عاهراتـه أن تقـدم البـلاغ الكيـدي في الولـد حـتى يتعلـم الأدب، قـضى أبي يـوم وليلـة في الزنزانـة الكابيـة حـتى تدخـل عمـه عبـد العزيـز وأخرجـه بعـد أن أعطـى نفـس العاهـرة مبلغًـا كبـيرًا مـن المـال، لتسـحب البـلاغ المقـدم ضـد أبي ففعلـت.

بعـد الحادثـة اختفـى شـاهين عـن الحـي، اللهـم إلا مـن أخبـار متباعـدات عنـه، قالـوا أنـه رحـل للإسـكندرية وتـزوج راقصـة، وقـال أنـه شـوهد ببـار في العتبـة يعمـل كنـادل، المهـم أن أخبـاره انقطعـت تمامًـا وتناسـوه أبنـاؤه وزوجـه وأخيـه وقراميـد جـدار مسـجد المؤيـد المجنـون.

-أنـت صرت كأبيـك يـا محمـود.. صـوت أمـي دائمًـا يطـاردني بهـذه الجملـة عـبر السـنين كالعـود الأبـدي.

فيمـا بعـد عرفـت أن نيتشـه تحـدث عـن العـود الأبـدي، وأن ديمومـة الألـم كانـت تفسـير شـوبنهاور للعالـم، نيتشـه وآرتـور كانـا مثاليـين معذبـين ككل مـن نـزع المنظـار الملـون ورأى العالـم عـلى حقيقتـه وحطـم قشرتهمـا المثاليـة عكـس كل الكاذبـين الأفّاقـين مـن المتشـبثين بالأقنعـة المثاليـة المفارقـة مـن الرومانتيكيـين الذيـن مسـخوا إرادة الإنسـان في

تميـيز وصنـع علاقـة حقيقـة غـير مزيفـة مـع الموجـودات، أتمـنى الآن أن يُحـرق هيجـل في محرقـة وقودهـا كتـب أفلاطـون وورد ثـورث والمنفلوطـي وأمـلي برونـتي وشـقيقتها البلهـاء وتـراث الأخـلاق العليـا والعالـم المثـالي واللاعنـف والسـلام البـارد والحـار والمتعـرق وسـوناتات شـومان وأشـعار محمـود درويـش وشـعراء الحـب العـذري طريـدي الفـلاوات وجمعيـة متأمـلي البحـيرة وكل مروجـي ضـلالات المراهقـة المنتـشرون عـلى وجـه التاريـخ كدمامـل البلـوغ، حقيقـة شـمطاء واهيـة متنمـرة لعالـم بسـيط حـد التعقيـد، ومعقـد حـد البسـاطة المخلـة، قـاسي، سـادي وطاغيـة، أمـا أنـا مـع تأمـلي فسّرتـه عـلى أنـه الخـذلان، العالـم هـو الخـذلان المتراكـم المتـوارث فينـا، نحـن صنيعـة تاريخنـا منـذ بـدأ الإنسـان في التذمـر مـن كل شيء.

***

تاريـخ جـدي هـو تاريـخ أبي هـو بالـضرورة تاريخـي ودافعـي في كل مـا سـيأتي مـن أيـام وسـط حومتهـا أيقنـت مـع الربـط والخـذلان أن الفـارق بـين فـردوس المثاليـين والعالـم الفعـلي أن الإنسـان في الفـردوس لا يحتـاج إلى

استخدام المرحاض، من آمن في عالم طوباوي على وشك الحدوث أنا أنتظره هناك في مجاهل الديستوبيا الحتمية، البشر أشرار بطبعهم مادامو يصارعون الفناء وتجرهم خيول الغرض، قالها رجل حكيم في سرديته الأعمق والأبقى «المثاليون أحرقوا العالم»، وأضيف عليه لظنهم أن إشعال الحرائق يختلف في وجهة النظر والتوجه والأيديولوجية، العالم ما هو إلا وجهة نظر لكن إلى ذواتنا الأنانية التي تعمى عن رؤية أرحب، الناس يعبدون اللامعيارية في كل شيء.

أنظر إليهم بعد ملايين من السنين من الترقي وتبدل الأحوال والتطور، وأضحك على سخافتهم؛ لأنهم مازالوا يقيسون العالم الكبير الشاسع على عقولهم فقط، أو من المفترض في ظني أن يقاس العقل بفاعليته كوحدة صغرى على العالم، لكن التطور البشري ما هو إلا انحدار.

المحصلة لكل قناعاتي وهرائي الشخصي أمام عائلتي وتكرار أخطائهم أنه ليس لك من العالم سوى جلطة القلب، تهبط عليك كأي خبر لا تحتمله شرايينك ليعاد

إنعاشك فتعود من برزخ الصمت المريح الآمن إلى عالم الشهادة كي تشهد موتك يتكرر كل يوم، محتضنا بقايا رمادك تجرعه حسرات.

***

-١١-

سكن الصمت بيتنا، أمي صامتة طوال الوقت تشغل وقتها في أي شيء بعد العمل، أبي صامت يجرع بؤسه ويستصيغه مع مرارة الخمر، أنا بين صمتين متنافرين أستنكر وأقرأ وأدون أفكاري الصغيرة.

نزلت صباحًا إلى الطريق متجهًا إلى المدرسة تخلفت عن الحافلة لأنفرد بأفكاري، فحالت حداثة سني عني إدراكها وتفسيرها، أفكار كصور مشوشة، أسئلة في فراغ لا إجابة عنها، حتى وقعت عيني على ليلى وهي تمشي، أسرعت الخطى لألحق بها، كأنها إجابة لإحدى أسئلتي المغمورة في اللافهم أوقفتها فنظرت إليَّ خائفة، سألتها

عـن سـبب منـع أمهـا لهـا لمصاحبـتي وأضفـت أني فقـط أريـد أن أعلـم السـبب حـتى أرتـاح، فأجابـت بعـد تحـرج طويـل

-لأنهـا وجـدت كتـاب أنـت أعطيتـني إيـاه، كتـاب فجـر الإسـلام، أتذكـره ياعمـر فعنفتـني وبعدهـا سـمعتها تخـبر أبي أن مصاحبـتي إيـاك خطـر عـليَّ وعـلى ديـني وعـلى صورتنـا أمـام الـرب.

قالتهـا وذهبـت وأنـا لـم أفهـم ألسـنا متسـاوون أمـام الـرب، بـل ازداد شـتاتي وتركـت إجباتهـا بـكل مـا تحملـه مـن أمـور أكـبر مـني تصـل إلى نظـرة الـرب لتغـرق داخـلي كحجـر ألقـي في بـئر بـلا قـرار.

وأنـا عائـد مـن المدرسـة اعتـدت أن أطالـع اللوحـات الإعلانيـة الكبـيرة الملونـة بالميـدان، الـتي كانت تبـدل كل فترة تحمـل صـور إعلانـات أفـلام جديـدة تعـرض بالسـينمات أو مسرحيـة جديـدة أو إعلانـات صابـون حـتى وقفـت مشـدوها أمـام إعـلان كبـير وسـط الميـدان لمسرحيـة رُسـم عليـه صـور الأبطـال ذكـورًا وإناثـا بابتسـامتهم العريضـة، كأنهـم يرحبـون بالجمهـور في بيتهـم، والعنـوان الكبـير تحـت الصور «بلـد الحمـير» واسـم المؤلـف الـذي انتقلـت إليـه بنظـري

مسرعًا علّ ما تمناه أبي حدث، وعلّ ما تمنيته لينهي مأساتنا حدث، لكني لم أجد اسم أبي بل اسم رجب عويس.

عدت إلى البيت وأنا ملتاع ومتوتر كأني أريد أن أخفي سوءة الغبن عن عين أبي، اسقبلتني أمي وهي تحضر الطعام وهي واجمة، سألتها عن أبي قالت إنه خرج لعل الفرج قد أتى، سألتها عن معنى الفرج، قالت

-الفرج هو جزاء الصابرين ياعمر.. أبوك ذهب مع صديقه عيسى الذي دبر له عملًا كموظف استقبال بإحدى الفنادق، عملًا سيكفينا ذل السؤال.

***

انتظم أبي في عمله الجديد ومع كسرة عينه وانفعاله في أول ليلة عاد من العمل وهو يضع أوراقه وكتبه وكل ما له علاقة بالكتابة والقراءة في المكتبة ويغلقها بقفل، ثم يضع على زجاج أبوابها ورق جرائد ليحجب مشهد الكتب عن الأنظار، هنا علمت أنه الإعلان الكبير، أنظر بعينه وهو يسير إلى عمله كأنه يعود لنقطة البداية، بل

يـدور في حلقـة داخـل حلقـة داخـل حلقـة، الشـارع يمـيز خطواتـه رغـم الغيـاب في الحـزن وقضـاء عقـد مـن الزمـن العبـثي المفتعـل السـليط.

أتبعـه وهـو يتبـع درب الآلام حـتى مدخـل النفـق الـذي يفـوق سـنين عمـره، النفـق المدخـل الوحيـد البخيـل لشـارع الأهـرام تلـك القبـور الهرميـة الـتي تجلـس تنظـر إليَّ وإليـه وإلى المدينـة بصـبر وتهكـم العجائـز، النفـق كمـا هـو مصبـوغ بسـناج العـوادم وكتابـات الحمقى، ينظـر إلى بقايـا الرخـام الـذي تحـوّل إلى جداريـة تخلـد الكبـت الجنـسي والبحـث المحمـوم عـن شريـك لحيـاة مهـدرة وسـباب لـكل شيء يغـرق في خطواتـه الـتي توقـد آتـون أفـكاره الغريبـة، عـشرة أعـوام ضاعـت في أثـر سراب في صحـراء، هنـاك كابـدت اللاجـدوى والأرق وانصهـار شرايينـه بكتابـات لا تطـرب غـير السـارقين.

اختـار أن يعـود هنـا ليكـون عاديـاً كأن العزلـة والاعتقـال والاسـتعباد والحلـم والأدب ماكانـوا، يعـود طفـلًا في مجـرى الطريـق الـذي يألـف خطواتـه يتطلـع إلى مصنـع الدخـان عـلى يمينـه يبتسـم للمبـنى الـذي يعلـن عـن نهـب رأسـمالية

بداية القرن بفعل التأميم، يبتسم وهو يشعل لفافة تبغ، ويقول لنفسه كم أتمنى أن أكفن في ورقة «بفرة» فاخرة عندما يحين موعد موتي وأختم بختم الشركة الشرقية للدخان، كم أتمنى أن أصبح لفافة من التبغ الخشبي مشتعلة في فم سائق يسب العالم.

ينخرط في صفوف العاديين يتفادى الزحام يرقص يراوغ احتكاكه بالمجالات الحيوية للموتى الأحياء من بني جنسه، أضواء، إعلانات، شركات تبشر الإنسان برغد العيش في الصحراء، إعلانات يكون هو فيها السلعة، سائقي الأجرة أوغاد متلصصون باعة للهواء أرداف نسوة مشتعلة، رجال يعبرون نهر القيء، ماء مجهول الهوية يقطر رائحة بول وبقايا سجائر وعلب بلاستيكية، شرطيان يداعبان السأم ببرم شاربهما، غبار سيارات وطريق تحول إلى مجرور يحمل نفايات وبشر.

***

بعد عدة أسابيع وأنا في الحصة الثانية أصبت بسخونة مفاجأة حولتني مدرستي إلى عيادة المدرسة، بعد أن كشفت عليّ الطبيبة أذنت لي أن أذهب إلى البيت

وأوصتني بعدة علاجات، كانت الحادية عشر صباحًا وأنا أخطو إلى داخل بيت، أمي بالطبع في عملها وأبي كذلك في عمله، سأقرأ قليلًا وأنام هذا ما قررت، دلفت إلى البيت عندما أغلقت الباب خلفي، سمعت أصواتاً غريبة تأتي من غرفة أبي، كان صوت امرأة تأن وتتأوه كأن بركان خامد ينفجر خلف الباب المغلق، رائحة نفاذة تغزو خياشيمي، تسمرت مكاني لا لأن الصوت لم يكن صوت أمي بالطبع، بل لأني ميزت نبرة مألوفة، فتحت الباب وجدت أبي يضاجع صباح.

رأيتها لأول مرة عارية تمامًا كاملة الغواية، لا أعلم لماذا شعرت بالرعب الذي أخرجني منه كف أبي التي هوت على وجهي وأطاحت بي على الأرض، كنت تحت قدمه أراه عاريًا كتمثال لإله أوليمبي، وصباح تغطي جسدها بملاءة السرير، وقفت وأنا أبكي، ثم عدوت إلى الشارع عدوت وعدوت علنيّ أشق غشاء الحياة حتى صدمتني سيارة فغبت عن الوعي.

فتحت عيني وأنا فاقد للزمن والحركة في سريري بالمستشفى والضمادات تغطي رأسي وقدمي مزروعة

في الجبيرة البيضاء، ميزت حولي وجه أمي وأبي وصباح جارتنا ووجه على اليباني علمت فيما بعد أنه بعدما صدمتني السيارة لحسن حظي أن علي اليباني كان يمر بالطريق فهرع إليَّ وحملني داخل سيارته الأجرة وانطلق بي إلى المستشفى، بعدما أوصى صبيانه بأن يقوموا بضرب السائق الذي تسبب في الحادثة.

***

كانت نظرات أبي مليئة بالندم كأنها تحمل رسالة لي ألّا أخبر أمي عما حدث، ووجه صباح التي لم تأتي بالطبع لتطمئن عليَّ، بل لتطمئن لعدم شيوع سرها على لساني، ونظرات أمي الباكية التي منعتني أن أقول أي شيء، عدت إلى الشارع على كرسي متحرك والجيران يطمئنون على حالتي، رأيت الورداني الكبير يأمر صبيانه أن يضعوا صورة كبيرة لصدام حسين عند مدخل المقهى، وعرفت فيما بعد أن شعبان هو من نصحه بأن يعلق الصورة حتى يأمن على مصير ابنه الوحيد العالق في العراق بعد حرب الخليج، فأسطورة شعبان تقر أن صدام حسين له عيون في شوارع القاهرة.

التوأم يزورونني كل يوم، ويتابعون معي دروسي التي فاتتني، نتبادل الدعابات ويقصون عليَّ أخبار مدرستي والرفاق ومباريات كرة القدم، أنا وأبي لم نعد نتحدث كأن الحبل الرابط بيننا قد انقطع حتى ذهب أبي بلا رجعة، فتحوّلت أمي من الكيان اللطيف الصابر إلى كتلة من القوة والكفاح، وهي لاتذكر اسمه أبدًا ولا تسمح لأحد أن يسأل عنه، حتى تسللت في يوم إلى وسط المدينة بحثت عن أحمد عيسى لم أجده، انتظرته على المقهى لساعات وأعدت الكرة لأيام وأيام حتى حانت لحظة الحقيقة وقابلته، سألته عن أبي وعما حدث لم يقل الحقيقة، وأخبرني أن أبي تعرّف على سائحة ألمانية في محل عمله وأغرم بها وبعد شهور أرسلت له ليحلق بها إلى ألمانيا، وأمي تعلم الموضوع من بدايته حتى أنه واجهها به وطلب منها أن يأخذك معه، لكنها رفضت وتمسكت برعايتك فاختار أبي طريقه وهاجر إلى ماوراء البحر وهو يسكنّ جروح أمي بحلم الثراء والمستقبل البسّام كعادته.

انعزلت لأيام في غرفتي وكل ما ملكت أمي أن تفعله لتعزيني بأن تقول لي كلما مرت، كن قوياً.

أطلقت روحي لفضاء الشارع ترجو خلاص لعله سيكون في النهاية واختيار الموت فلابد لكل شيء أن ينتهي، نمنّي أنفسنا بذلك طوال الوقت، البحث عن النهايات الحاسمة عزاء من فقدوا الرقص الوثاب على أطراف البدايات من سقط من جعبتهم طوال المسير أمانيهم وتعلقهم الطفولي بأبطال يتساقطون واحداً تلو الآخر، أبطال من عجوة، أبطال من قصدير ينكمش حتى يصبح إعادته لصورته الأولى ضرب من الخرف، أبطالنا كمثلنا العليا الكاذبات مجرد معرض لأقنعة ودروع من صفيح، بل كبالونات ننفخها حتى تنقطع أنفاسنا فتنفجر فينا.

كان لابد لأي شيء أن ينتهي، أن يأفل الرب مع بقية أرباب العالم القديم لن نتحرر يومًا إلا وقت تخلينا عن أكاذيبنا الصغيرة بيننا وبين أنفسنا النزقة مدمنة الهدهدة، لا نتحرر ما دمنا نترنح بين وغد ووغد كبندول في فراغ.

***

-١٢-

الطبيعي يؤلم لأنه واقع الحدوث والمؤلم به ذواتنا الباحثة دائمًا عن معجزة تغير مجرى النهر المنساب منذ أن انتصبنا على قدمين منذ آلاف السنين، الصراع هو المحرك بين ما نريد وما يحدث، الرغبة والطموح والغرور وادّعاء الأهمية والتفرد كل هذا ينهار كجدار من الملح المتكلس أمام عدم القدرة، نحن أسرى عدم التحقق في هذا العالم.

أخط تلك الأفكار بقلم استعرته من موظفة استقبال الفندق على ورقة تحمل شعاره، أحاول أن أستمر، تقف الكلمات والأفكار عجفاء وعدم القدرة على الصياغة

تتوثب على الصفحة البيضاء كمهرج سمجٍ في سرك ريفي، أربعة أعوام أو أكثر جفاتني الكتابة، الكتابة أصبحت جبلاً لا أستطيع صعوده وقلمي أصبح شيخًا بلا لياقة تجاري الأفكار، بل الأفكار نفسها شاخت، كل هذا اللهاث وعدم القدرة تصيبني في مقتل.

أشعر أنني فقدت قدرتي الجنسية، رجل بلا انتصاب في آخر العمر، بلا كرامة، بلا فحولة، بلا حياة، هذا حالي زوجتي الصحفية الشهيرة تحاول مرارًا أن تنصحني أن أكتب حتى عن أي شيء كنوع من التمرين، ومديرة أعمالي الشابة المتحمسة تخبرني بأن أفعل نفس الشيء، لكن بلهجة أكثر رقة.

الناشر، القرّاء، بائعو الجرائد، البقال، صبي المقهى، عيون الكلاب والقطط، شاشة التلفاز، وأزيز مروحة شفاط الحمام، كل العالم بأفاريزه وأتربته ينصحني.

الكتابة سهلة، الصنعة متوفرة لكن السيولة والسلاسة لا توجد، الشغف نعم هذه هي الكلمة، الشغف لفعل شيء، تلاشى كرماد زر في الهواء، كل شيء تحطَّم مع الجفاء أعصابي وعالمي والأعمال التي خططت لها

أجلتها، وألقيت أفكاراً نصف مكتملة إلى فتحة المرحاض.

أكور الورقة وألقيها في سلة المهملات، في الزمن السابق عندما كنت متخم بالعظمة الجوفاء كنت لا أقدر على إلقاء ورقة، اكتناز مرضي لأفكار وكلمات، صورت لنفسي أنها موحى إليَّ بها، ماذا أنتظر الإلهام؟ الإلهام هو أكبر كذبة اخترعها أفلاطون الوغد مع مجمل أكاذيبه المثالية التي أفسدت الطبع البشري من الأصل، بل أعطته مبررات أن يفعل كل شيء داخل الكهف بنفس راضية.

أرى جيلان مساعدتي تهرع إلى من طرف البهو متوترة كالعادة تهتز في فستانها الضيق الأسود القصير، الكعب يدق على أرضية البهو في وقع استدعاء ولهفة، صدرها يرتج من فتحة الفستان، ككرتين من الجيلاتين تتعاركان على أولوية الهروب تتكلم بصعوبة محاولة تمالك أنفاسها:

- أين أنت، التكريم سيبدأ، أشدها من كفها لتجلس جواري ثم أناولها كوب ماء، أنظر إليها وهي ترتشف الماء بنهم وأقول مبتسماً

- هـل تعلمـين أن طـوال ثلاثـين عامًـا وكل مـن عمـل معـي سـتظلين أنـت الأفضل

- جميـل أنـك تقول شيء لطيـف لأول مرة ياعمـر.. هيا بنا.

اتبعهـا وهـي تقـودني إلى مدخـل قاعـة المؤتمـرات الكبرى، هنـا في أكـبر فنـادق أبوظـبي، أسـألها عـن لبـنى زوجـتي، تشـير إلى زوجـتي الـتي تجلـس في مكانهـا بشـعرها الأشـقر بجـوار نـاشري ذلـك الوغـد الطيـب.

نتسـلل وننضـم إليهمـا في المقاعـد الأماميـة، أمـام المـسرح المضـاء بألـوان فيروزيـة مقـام عليـه مراسـم تكريـم كتّـاب كبـار وشـباب مغموريـن ومخرجـين، وكل المتبطلـين الذيـين لـم يفعلـوا شـيئًا سـوى التنظـير مـن أمثـالي وأمثـال أفلاطـون.

أسـماء ودروع ومقـام كريـم وخطـب شـكر وأعمـال تكتب منـذ أربعـة آلاف عـام أو أكـثر، تكـدس أو تحـرق أو تصبـح وقـود مكتبـات العالـم تشـعر بالملـل وتتشـاءب كمـا قـال بوكوفسـكي، إعـادة تدويـر واجـترار أفـكار، أفـكار مولـودة مـن أفـكار، وأفـكار مستنسـخة عـن أفـكار، وأفـكار هـي صـورة

لأفكار، والغريب أن العالم مازال يحتفي ويكرم كاتب مثلي حتى بعد أن جف مصنع تدوير الأفكار ولو بيدي لحرقت كل كتب العالم.

أنتظر دوري في ملل زوجتي تحتضن كفي كأني أول مرة أُكرم أو تصيبني جائزة من جوائز الكتابة، أنظر إليها وأعطيها ابتسامة دافئة تربت على كفي هي تعلم أن داخلي فراغاً، أن صدري حوض يسبح به أسماك من البيرانة الميتة، أرض خراب، متاهة معتمة، لكنها تتقن تحميسي كزوجة فاضلة.

أغير اتجاه بصري إلى يساري أسرق نظرة شهوانية من فخذ جيلان بسمارها الحارق كتوابل الجنوب، أسرح في الجلد تحت طرف الفستان المنحسر كبحر يسحب أمواجه في جذر ومد، فتضيء ركبتها كقمر مكتمل.

أجد كفها يلمس كوعي في خفاء، أرفع بصري إليها أجدها تبتسم، تلك الثلاثينية التي تحملت العمل معي قرابة عقد من الزمن، تلك السمراء الممشوقة التي امتصت وتحملت ككل من حاوطني جنوني المتوارث وأغرمت بي وأنا في خريف عمري.

عقدي السابع على وشك البدء أعلم أن لبنى تعلم علاقتي بجيلان، وأن هناك اتفاق صامت مكتمل، لبنى الصابرة كإتان، تحملت النزوات طوال عقود، لكنها لم تتسلم أبدا في تغييري إلى الأفضل، لبنى التي تزوجتها فتاة يافعة وهي تحمل أمل في إخراجي من متاهاتي ظنت أن الوقت سيزهر وروداً في قلبي البور، خاضت معارك طبيعية ككل المحتوم الملعون تركتني مرارًا ثم عادت، كنت أعتذر عن أخطائي وعن بصمة النساء على جسدي كانت تصدق كل مرة، حتى توقفت أنا عن الاعتذار وهي سلمت للأمر الواقع، لكنها اشتعلت مع وجود جيلان في حياتي.

أخرج القلم من جيب سترتي أطلب من لبني أي ورقة تخبرني لا يوجد، فتعطيني جيلان منديلاً ورقياً آخر، أخط عليه ما في عقلي «أكتب عن العاهرات والنساء التي عدفتهن».

أبتسم ثم أضع المنديلَ في جيبي، فكرة مستهلكة أخرى لكنها ستبيع.

***

مضيف الحفل يلقي كلمة عني مواكبًا عرض صورة من كتبي ولي منذ شبابي الأول على الشاشة الكبيرة خلفي، أستشعر انتصابًا جنونياً، أمد يدي بخفة بعيدة عن أعين زوجتي لأعتصر فخذ جيلان، تتنفض وتنفض يدي وهي تبتسم وتلقيني بنظرة خجلة، المضيف يسترسل وأنا مهتاج بشكل لم أعهده.

يبدو أني جننت أو تفخيم ذاتي الجاري على المسرح أمامي الآن، هو من أشعل ذكوريتي المنطفئة.

-الآن نرحب بكاتبنا الكبير وضيف شرف الحفل عمر شاهين.

أقوم وسط إماءات التقدير المجوفة، أرتب شعري الرمادي المبعثر أزرر سترتي، متى ابتعت هذه البذة لا أتذكر، لبنى هي من تتكفل بالملابس معظم الوقت، بمساعدة جيلان أحيانا، أثبت نظارتي الطبية إطارها التي أحملها على وجهي منذ عقود كذنوب متقرحة، أصعد إلى المسرح تصيبني الإضاءة المتراقصة بدوار تختل قدامي فأسقط، آهات الجماهير ترتفع كأنهم يشاهدون عرضاً للاعب كرة بلا كفاءة، أقوم وأستمر إلى المسرح أمام يد

المضيفة التي هبت لمساعدتي يرن في أذني صوت جيلان وهو يتبعني لتخبرني أن أرتدي رابطة عنق وأنا أرفض كالعادة.

أقف خلف الميكروفونات أجد عنوانًا كبيرًا لامعاً على الشاشات «رحلة عطاء»، عطاء؟؟ ماذا أعطيت؟! أنا أكبر أناني في التاريخ، الكتابة أكبر عمل انعزالي، مسارات من الغواية تبدأ كنوع من الفضفضة الشخصية ومع احترافها، تصير نوعًا من الاستمرار السيزيفي في مواجهة الموت والتخثر، أين العطاء في مشاركة البشر أمراضي النفسية، أين العطاء في مهنتي التي تحوَّلت إلى ذريعة أن أمارس أنانيتي المفرطة، أن أمتص العالم حتى يذبل ويموت ويزوي، أعتصر شخوصاً من الأقربين أقتطع أرواحهم وانفعالاتهم كأي مصاص دماء، أو كطفل يهشم ويفتت الألعاب ويعيد تركيبها بشكل شاذ ومتهتك كيف لُعنت بالكتابة؟ أحاول أن أتذكر، أن أفتح المغلق من الأبواب في سراديب اللاوعي، كيف تعلمت المحاكاة.

تعلمته هناك أمام أبي في جلسته اليومية التي لاتنتهي، الجبل لايمل من موضعه وأبي لا يمل، طفل وحيد أنجبه

في غفلة من الزمن، أتذكره يكتب طوال النهار، يكتب وصوت عبد الحليم أو أم كلثوم يغمر هواء الغرفة، ليمتزج مع دخان التبغ الأبيض الحليبي السابح في اللامكان، أجلس على الأرض أشاهد أي شيء في التلفاز أو ألعب أي شيء مع أصدقاء خياليين لا يراهم أحد غيري، وهو مستمر ومستمر في الكتابة كأنه يخط تاريخ الكون وخلفه مكتبته الضخمة التي طالما طالبته أمي أن يبيع بعضًا من مقتنياتها ليفك كرب الحاجة وقلة النقود وتمنّ العمل وبَعُدَ الحلم.

أبي كان يرفض وأحيانًا كان يضربها بعنف فتبكي منكسرة كالكوب على أرضية الغرفة، لكن بعد دقائق كنت أجده في أحضانها يبكيان سويًا، ولطالما انتهت الأزمة بقبوعهما ساعات في غرفة نومهما المغلقة، يفعلون ما لم أكن أميزه بسبب حداثة سني، لما كبرت ونضجت في مراهقتي أيقنت أن الجنس هو علاج البكاء والألم وتقرحات الشفاه وقلة الرزق واختلاف الآراء والحروب العبثية.

أعدل من وضع عويناتي، أتبع خيوط الثقة قبل أن ألقي كلماتي على مسمع الحضور المتثائب، بالتأكيد لن

أطيل عليهم فهم لم يأتوا إلا لانتظار لحظة نهاية العبث والثرثرة كي تبدأ لحظة البوفيه المفتوح وأواني الطعام، إذا خُير الإنسان بين إشباعه الغريزي وبين تنمية شيء في وعيه سيختار الطعام والشراب والتكاثر دون طرفة عين، الكتب فقط ستكون مهمة عندما تنتهي الحضارة الحديثة كما بشر المتشائمان «شبلنجر وفوكوياما»، ستكون فقط لاستخدام أوراقها في التدفئة، مسرحيات شكسبير وقصائد بودلير ومجلدات ابن كثير والشاهنامة ستكون وقوداً جيداً في شتاء طويل قادم.

سأرتجل كالعادة، أرشف رشفة ماء من الكأس أمامي، أتنحنح قليلًا، ألوك الصمت أمام الميكروفون، يتطلعون إليَّ فأبتسم، أجد جيلان تشير إلى أن أبدأ وزوجتي تلومني بنظراتها كي أكف عن التلاعب بالبشر.

-مساء الخير السيدات والسادة، والزملاء والأصدقاء، أنا ذاك الشاب داخل الشاشة -أشير إلى صورتي- أو بالأحرى هو من كنت عمر شاهين كاتب إذا جاز التعبير والتبجح-أصوات ضحكات مكتومة تأتي من القاعة- أشكر تكرم هيئة المهرجات على استضافة شخصي.

أصمت قليلا لأجد شيئًا يقال أو أي إضافة حذقة، أو كما اعتدت في كل لقاءاتي وندواتي، أشعر بجفاف عقلي كحلق متيبس وسط صحراء جرداء، أشعر بتعرق في يدي وفي خلفية عنقي وأنا أتذكر صورة أبي الشاخص أمام الكون، لما تزورني الآن وسط هذا الموضع كيف تلح الصورة مرارًا وأنا لا أتذكرها لسنوات وسنوات، صورته واقفًا تتدلل لفافة تبغ من فمه بسخرية وأنا متعلق بساقه.

-أعزائي حتى لا أطيل عليكم فقط أريد أن أهدي هذا الإنجاز هو جائزة العطاء، إلى من تحملني ووقف جواري وامتص نزقي، إلى زوجتي لبنى أشكركِ من صميم قلبي على صبرك، وإلى مديرة أعمالي ومساعدتي جيلان فخري لولاكي ما صدمت عشرة أعوام، وإلى وكيلي وناشري المتحمس دائمًا، بالطبع لأكمل الكليشيه المعتاد أهدي كل هذا إلى قرائي، الآن الكل راض، الكل سيعود إلى منزله قرير العين، الكليشيهات المعتادة تملؤنا بالاكتفاء، تطمؤننا بأن كل شيء في موضعه معلب في علب كالتوابل كتب عليها نوعها، لا حيرة أو تيهٍ أو مجهود.

***

الآن، أخـرج مـن خطـاب رجـل مغـرق في الكليشـيهات إلى خطـاب مقلـق بعـض الـشيء- تـزداد أصـوات همهـات الحضـور- لأكمـل إذن عـلى هـذا المنـوال لأن الفكـرة راقـت لي-أضحـك بعصبيـة-

أنـا الآن فقـط أكـرم لأنـني سـلعة وسـلعة جيـدة وهـذا بالنسـبة لي شيء عظيـم ؛ لأنـه يحمـل تقديـر حاربـت مـن أجلـه لأحقـق عدالـة مـا لي وسـط أدغـال العالـم، الآن أنـا محبـوب ومعـروف الآن أنـا في القمـة وأسـتطيع أن أقولهـا قريـر العـين، إنـني وصلـت إلى المجـد الـذاتي والاسـتمتاع بتضخمـي، بـلا أقنعـة، لـن أكـذب وأقـول أني غـيرت وجـه العالـم أو مجـرى التاريـخ بكتابـاتي بـل كل مـا كتبتـه، كتبتـه لأكـون عظيمًـا ويشـار لي بالبنـان، عـلّ الصـدق هـو سـبيل خلاصنـا، لأقـول الحقيقـة لأول مـرة الآن أنـا متحقـق أمـام الجميـع وأمـام نفـسي غـير أن مـا أردتهـم أن يشـهدوا هـذا النجـاح لـم يعـودوا موجوديـن في حيـاتي أو في الحيـاة عمومًـا، أبي الـذي أورثـني الصنعـة وعقـدة الشـخصية أردتـه أن يكـون هنـا في الصـف الأول ؛ ليكـون شـاهدًا عـلى أني لسـت بـلا فائـدة وأنـني انتـصرت بفكـرتي ضـد فكـرتي أن لا جـدوى مـن الكتابـة أو الشـهرة أو الفـن أو القتـال، الكتابـة يـا أبي

هـي مكابـدة اللاجـدوى وضـد الفنـاء مثـل إيـكاروس، هـل لـو كان تعلـم الـدرس واسـتمع للنصيحـة ولـم يتقـرب مـن الشـمس الحمئـة وطـار بأجنحتـه الـتي لـم يـذب شـمعها، هـل كان سـيكون هنـاك إيـكاروس؟

الأسـطورة تخبرنـا أن ديدالـوس الصانـع المبتكـر الأعظـم وهبتـه الآلهـة الـذكاء الثاقـب وسـلَّحته بالحيـل، لكنهـا أسـكنت مـع كل هـذا الكـبر والتفاخـر، كان لابـد أن لا ينصـت إيـكاروس لأبيـه ويقـترب مـن الشـمس حـتى يتعلـم ديدالوس الـدرس عمليًـا، الآن بعـد جفـاف سـأعود لأكتـب مـرة أخـرى سأسـكب مـن روحـي فقـط لهـدفي الأول، لـن أكتـب للقـاريء أو للنـاشر أو للاستحسـان، بـل سـأكتب لأخـرج مـن التيـه.

أصمـت فتضـج القاعـة بتصفيـق حـاد، وآهات استحسـان أشـاهد في فضـاء القاعـة إيـكاروس يحلـق وسـط الإضـاءة الـتي تتخللهـا حفيـف أجنتـه ، أبتسـم للظـل الملقـى عـلى مـدى بـصري وأغيـب فيـه.

القاهرة

أكتوبر ٢٠١٨

الكنزي
ALKANZY